هَنِيبَعْل

حملات هنيبعل العسكريّة

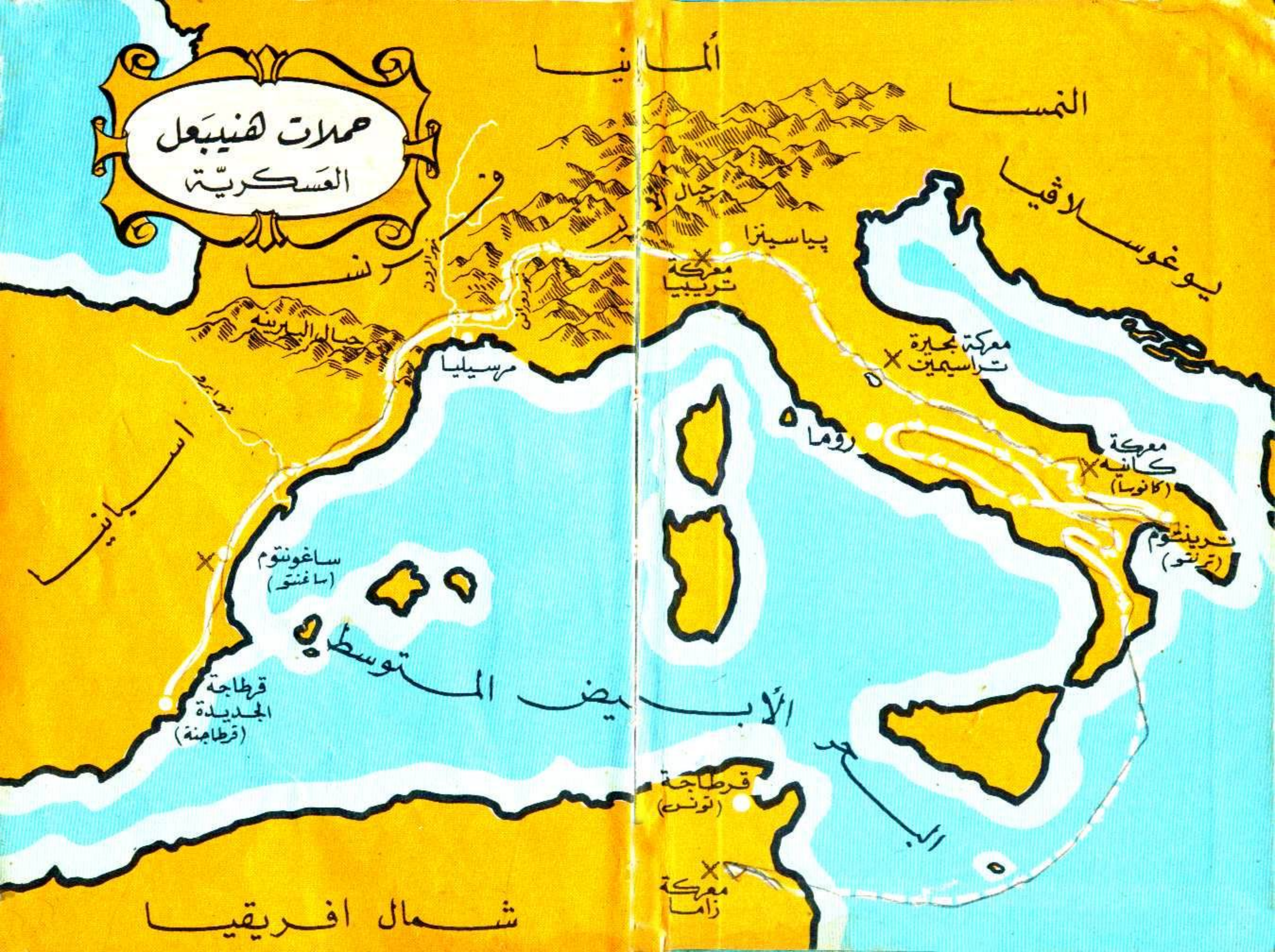

أَكْثَرُ ٱلنَاسِ لَا يَعْرِفُوْنَ عَنْ هَنِيْبَعْلَ سِوَى أَنَّهُ ذَاكَ ٱلرَجُلُ ٱلذِي عَبَرَ جِبَالَ ٱلأَلْبِ بِعَدَدٍ مِنَ ٱلفِيَلَةِ. غَيْرَ أَنَّكَ فِي هٰذِهِ ٱلقِصَّةِ سَتَجِدُهُ ٱلقَائِدَ ٱلعَسْكَرِيَّ ٱلمُحَنَّكَ ٱلمِغْوَارَ ٱلذِي كَادَ أَنْ يُرَكِّعَ رُومَا وَفَاءً بِقَسَمِ عَدَاوَتِهِ ٱلأَزَلِيَّةِ لَهَا.

© حُقوق الطبْع محفوظة . ١٩٧٨

طُبِع في انكلترا

هَنِيبَعْل

تأليف : ل. دو غارْد پيتْش
نقله الى العربية : محمُود عَارف الاكحَل
وضَع الرسُوم : فرَانْك هَمْفرِيس

الناشرون :

مكتبة لبنَان
بَيروت

ليدِيبرْد بُوك ليمتد
لافبُورو

لونغمَان
هَارلو

هَنِيبَعْل

كَانَتْ مِصرُ وَٱليونانُ وَرُوما هي الدُّوَلَ الثَّلاثَ الكُبْرى ٱلَّتي أَرْسَتْ مُنْذُ أَمَدٍ بعيدٍ أُسُسَ ٱلحَضارَةِ كما نَعْرِفُها ٱلْيَوْمَ. وكَانَتْ هٰذِهِ ٱلدُّوَلُ قَدْ تَعَلَّمَتْ بِدَوْرِهَا مِنَ ٱلآخرين ٱلَّذينَ تَحارَبَت مَعَهُمْ وَتَاجَرَتْ. وَمِنْهُم ٱلفِينِيقِيُّونَ ٱلَّذِين كَانُوا مِنَ ٱلجُرْأةِ وَٱلمَهَارَةِ بِحَيْثُ أَقْلَعُوا. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ. بِمَراكِبِهِم ٱلصَّغِيرَةِ إِلى بِحارٍ مَجْهُولَةٍ وَرَاءَ مَضَايِقِ جَبَلِ طارِقٍ ٱلَّتي سَمَّاها ٱلرُّومَانُ أَعْمِدَةَ هِرَقْلَ.

وَقَبْلَ أَنْ يَغْزُوَ يُولِيوسُ قَيْصَرُ بِرِيطانيا بِزَمَنٍ بَعِيدٍ. عَبَرَ ٱلفِينِيقِيُّونَ إِلى «ٱلكَاسِيتِرايدْس»، أَيْ جُزُرِ ٱلقَصْدِيرِ. وَهِيَ إِمَّا بِريطَانيا أو ٱلسِّلي (عدد من الجزرِ الواقِعَةِ جَنوبَ غَرْبِ بِريطانيا). ولمّا كانوا بَحَّارَةً فَقَدْ تَعَلَّموا الإِفَادَةَ مِنَ المَدِّ وَٱلجَزْرِ اللَّذَيْنِ لا وُجُودَ لَهُما في ٱلبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلمُتَوَسِّطِ. وَلَمَّا كانوا تُجَّاراً فَقَدْ قايَضُوا ما عِنْدَهُمْ بِٱلقَصْدِيرِ ٱلَّذي كانَ يَنْدُرُ وُجُودُهُ في ٱلشَّرْقِ.

وَدَأَبَ ٱلفِينِيقِيُّونَ. كَسائِرِ ٱلبَحَّارَةِ ٱلتُّجارِ. عَلَى إِنْشَاءِ مَرَاكِزَ تِجارِيَّةٍ حَيْثُما بَدَتِ ٱلفُرَصُ سَانِحَةً. فَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلمَراكِزُ مُنْتَشِرَةً حَوْلَ سَوَاحِلِ ٱلبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلمُتَوَسِّطِ. وكان أحدُها، وهو قَرْطاجَةُ، قد أُقيمَ على ساحِلِ إِفْرِيقِيا الشمالِيِّ. وبقي قروناً ٱلمَرْكَزَ ٱلتِّجارِيَّ ٱلرَّئِيسَ لِلْبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلمُتَوَسِّطِ. وَلِهٰذا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ وُقوعِ صِدامٍ إِنْ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً بَيْنَ هٰذا ٱلمَرْكَزِ وَقُوَّةِ رُومَا المُتَعاظِمَةِ.

تَعْتَمِدُ ٱلتِّجارَةُ فِيما وَرَاءَ البِحارِ عَلَى ٱلمِلاحَةِ، وَسَلامَتُها تَعْتَمِدُ عَلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى ٱلبِحارِ. وَبَعْدَ أَنْ دَمَّرَ ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلأَكْبَرُ صُورَ سَنَةَ ٣٣٢ (قَبْلَ ٱلميلادِ) ٱنْتَقَلَتْ سِيادَةُ ٱلبَحْرِ إِلَى قَرْطَاجَة.

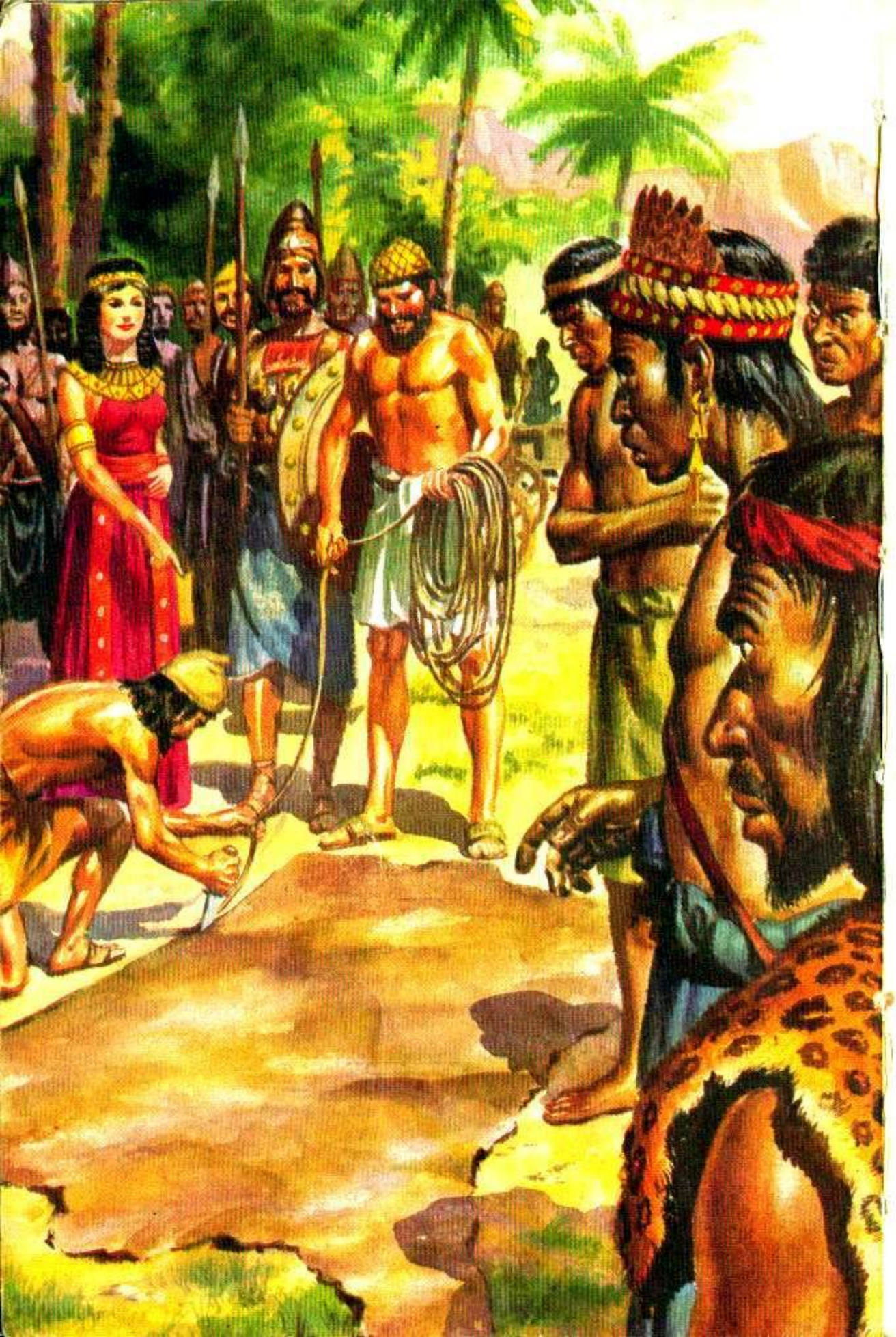

أَنْشَأَ ٱلفِينِيقِيُّونَ مَرْكَزَ قَرْطَاجَةَ التِّجَارِيَّ بَيْنَ ٩٠٠ و ٨٠٠ ق. م.. أَيْ قَبْلَ حَوَالَى ٱلقَرْنِ مِنْ تَأْسِيسِ رُومَا. وَهٰذَا يَعْنِي أَنَّهُ حِينَ أَصْبَحَتْ رُومَا مَكَاناً لَهُ أَهَمِّيَّتُهُ، كَانَتْ قَرْطَاجَةُ ٱلدَّوْلَةَ ٱلتِّجَارِيَّةَ وَٱلبَحْرِيَّةَ ٱلرَّئِيسَةَ فِي ٱلبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلمُتَوَسِّطِ. وَعَلَى مَرِّ ٱلزَّمَنِ ٱتَّضَحَ لِلْقَرْطَاجِيِّينَ أَنَّ أَهْلَ رُومَا الأَشِدَّاءَ قَدْ يُصْبِحونَ مُنَافِسِينَ خَطِرِينَ لَهُمْ عَلَى تِجَارَةِ ٱلبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلمُتَوَسِّطِ.

وَتُفِيدُ أُسْطُورَةُ إِنْشَاءِ مَدِينَةِ قَرْطَاجَةَ أَنَّ عَدَداً مِنَ ٱلمُهَاجِرِينَ مِنْ صُورَ مُنِحُوا ٱلحَقَّ فِي ٱلحُصُولِ على «رُقعَةٍ مِنَ ٱلأَرْضِ يحتويها جِلْدُ ثَوْر». وَلَا شَكَّ أَنَّ القَصْدَ كَانَ حِرْمَانَ أولئكَ المُهَاجِرينَ مِنَ ٱلأَرْضِ بِأُسْلُوبٍ سَاخِرٍ.

وكَانَ بَيْنَ ٱلمُهاجِرينَ أَمِيرَةٌ صَمَّمَتْ عَلَى ٱلبَقَاءِ. فَأَمَرت بِتَقْطِيعِ جِلْدِ ٱلثَّوْرِ شُرُطاً رفيعةً كَرِبَاطِ ٱلحِذَاء. وَلَمَّا عُقِدَتْ هٰذِهِ ٱلشُّرُطُ معاً مِنْ أَطْرَافِها كانَ طُولُها كافِياً لِتَطْوِيقِ تَلَّةٍ. وَعَلَى تِلْكَ ٱلتَّلَّةِ شَيَّدَ ٱلمُهَاجِرونَ حِصْناً. وَسُرْعان ما نَشَأَتْ حَوْلَ ذلك الحِصْنِ مُسْتَوْطَنَةٌ عُرِفت بِاسْمِ قَرْطَاجَة – وَهُوَ ٱلتَّحْرِيفُ ٱليُونانِيُّ وٱلرُّومانِيُّ لِاسْمٍ قَدِيمٍ مَعْنَاهُ المَدِينَةُ ٱلجَدِيدَةُ.

كانَ القَرْطَاجِيُّونَ بَحَّارَةً وَتُجَّاراً. وَلَمْ يَكُونُوا مُزَارِعِينَ. فَعَنْ طَرِيقِ ٱلتِّجَارَةِ أَوِ ٱلغَزْوِ كَسَبُوا ٱلمَالَ لِشِراءِ ٱلعَبِيدِ ٱلَّذِينَ يَزْرَعُونَ الأَرْضَ وَيَحصُدُونَ غَلَّاتِها ٱلوَفِيرَةَ. وَبِما أَنَّهم لَمْ يَكُونُوا يَدْفَعُونَ لِلْعَبِيدِ أَجْراً. وكَانُوا يَبِيعُونَ ٱلحِنْطَةَ لِمَنْ يَدْفَعُ أَعْلَى سِعْرٍ. فَإِنَّ أَرْبَاحَهُمْ كَانَتْ عَظِيمةً جِدّاً.

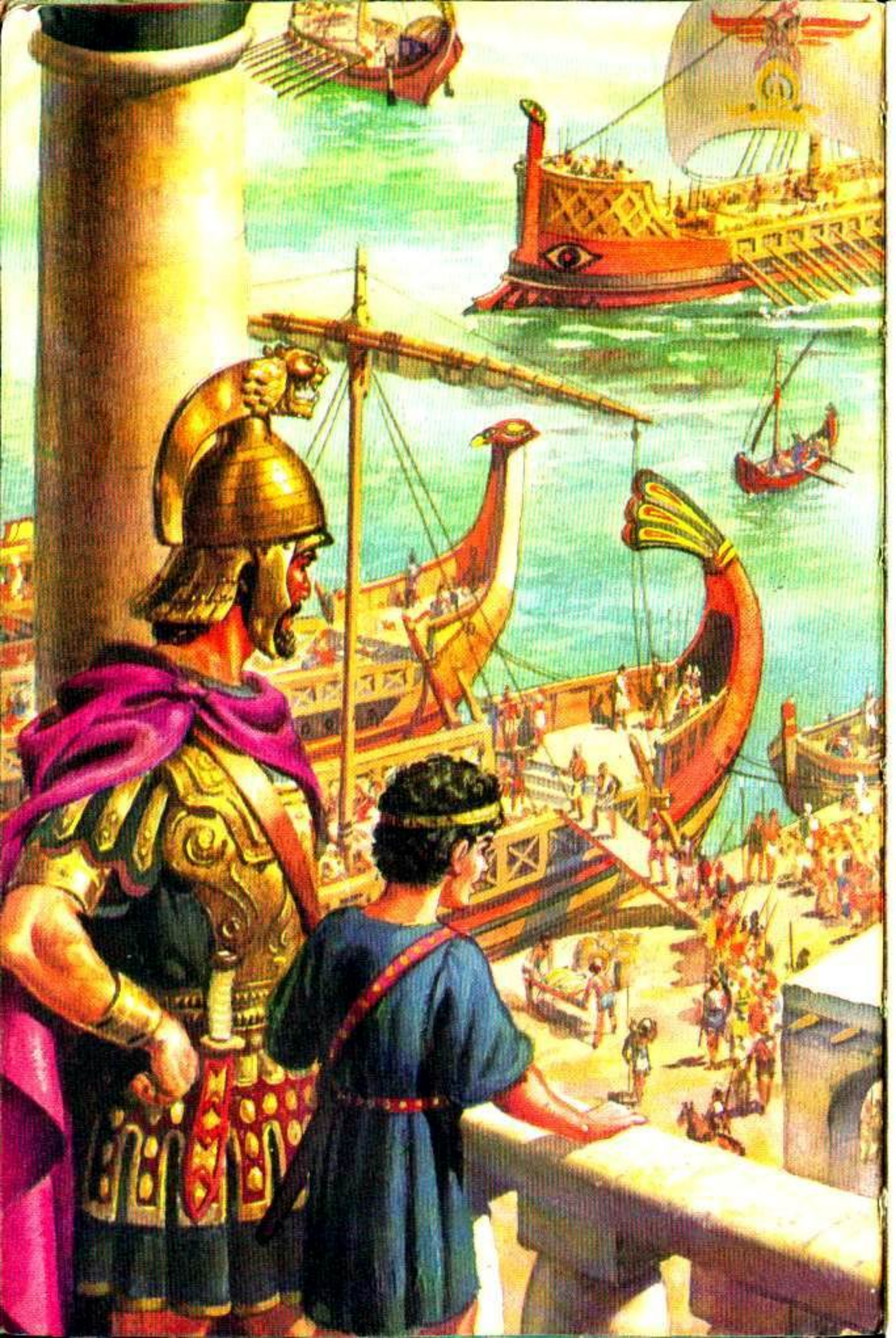

وَيَبْرُزُ في ٱلْمُجْتَمعِ ، أحياناً ، أناسٌ يَكُونُونَ أَقْدَرَ مِنْ سَائِرِ ٱلقَوْمِ وأَشَدَّ . ونقولُ عن هؤلاءِ ٱلنَّاسِ عادةً بأنَّهم زُعَمَاءُ بالفِطْرَةِ . وَقَدْ يُصْبِحُونَ رؤساءَ دُوَلٍ ، أَو دِكْتَاتُورِيِّينَ أَوْ مُسْتَشَارِينَ مُتَنَفِّذِينَ أَوْ قَادَةً عُظَمَاءَ . وَفي ٱلتَّارِيخِ أَمْثِلَةٌ عَدِيدَةٌ عَلَى ٱنْتِقَالِ مِثْلِ هذِهِ ٱلقُدْرَةِ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ .

وَيَتَحَدَّرُ وَالِدُ هَنِيبَعْل ، هَميلْكار باركا ، مِنْ أُسْرَةٍ ذَاتِ جَاهٍ وَسُلْطانٍ . وَهَميلكارُ باركا نفسهُ كانَ قَائِداً مَشْهُوراً قَادَ بِنَجَاحٍ جَيْشاً ضِدَّ الرُّومَانِ في صِقلِيَةَ سَنَةَ ٢٤٧ ق . م . كما انَّهُ قَمَعَ ، في ما بعد ، تَمَرُّدَ جَماعَةٍ من جُنْدِه انقلبُوا عَلَى قَرْطَاجَةَ .

وقد وُلِدَ هَنِيبَعْل (ٱلَّذي يَعْتَبِرُهُ كَثيرٌ مِنَ ٱلمُؤَرِّخِينَ أَعْظَمَ قَائِدٍ عَسْكَرِيٍّ في ٱلتَّارِيخِ) في قَرْطَاجَةَ على ٱلأَرْجحِ حوالى سنةِ ٢٤٩ ق . م . وعاشَ حوالى ستِّينَ عاماً ، إذ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ تُوفِّيَ عامَ ١٨٥ ق . م .

كانَ هَميلْكار بَارْكا قد عَقَدَ ٱلعَزْمَ على أنْ يُصْبِحَ وَلَدُهُ مِثْلَهُ قائِداً مُقْتَدِراً . فَاصطحَبَهُ وهو لا يزالُ صَبِيّاً في ٱلتَّاسعةِ مِنْ عُمْرِهِ . إلى إسْبانْيا حيثُ كانَ ٱلقرطَاجِيُّونَ قَدْ أَنْشَأُوا مُسْتَعْمَرَةً لَهُمْ . وَبَدَأَ تَدْريبُ القائِدِ ٱلمُنْتَظَرِ لِلْجَيْشِ القَرْطَاجِيِّ في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ . فَمَا انْ أَشرَفَ هَنِيبَعْلُ عَلى ٱلعِشرينَ مِنْ عُمْرِهِ حَتَّى عُهِدَ إِليهِ القيامُ بِعِدَّةِ مُهِمَّاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ صَغِيرَةٍ بإشرافِ وَالِدِهِ في بدايةِ الأمْرِ . ثُمَّ بَعْدَ ذلك بإشرافِ صِهْرِهِ هَسْدْرُوبال ٱلَّذي تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٢١ ق . م . وحِينَذَاكَ كَانَ هَنِيبَعْلُ قَدْ أَصْبَحَ ضَابِطاً مُتَمَرِّساً .

إنَّ التَّدريبَ ٱلْعَسْكَرِيَّ الشَّامِلَ ٱلَّذي تَلَقَّاهُ هَنيبَعْلُ عَلَى يَدِ وَالِدِهِ . كَانَ لِغَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ . وَمُنْذُ أَنْ كَانَ هَنيبَعْلُ في ٱلتَّاسِعَةِ لَمْ تَغِبْ هٰذِهِ ٱلْغَايَةُ عَنْ بَالِهِ . فَقَبْلَ ذَهابِهِ إِلَى إِسْبانيا أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهداً قَاطِعاً أَنْ يَحْقِدَ دَوْماً عَلَى رُومَا وَٱلرُّومانِيِّين . كان هَميلكار باركا قد عَقَدَ العَزْمَ على أَنْ يَجْعَلَ من ٱبنِهِ رَجُلاً قادراً على أَن يَستَمِرَّ في ٱلْحَرْبِ ، إذا قُتِلَ هو . وأَنْ يَكسِبَها ، لِيَمْنَعَ رُوما مِنَ ٱلسَّيْطَرَةِ عَلَى ٱلبَحْرِ الأَبيضِ المُتَوَسِّطِ .

وَمُنْذُ أَيَّامِ يُولِيوسَ قَيْصَرَ **درج** الكثيرُ مِنَ ٱلقَادةِ عَلَى تَدْوينِ سِيَرِ حَياتِهِمْ وَاشْهَرِ معارِكِهِم . وَلِسوءِ ٱلحَظِّ كانَ ٱلعَديدُ مِنْهُم عَسْكَرِيِّين قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا كُتَّاباً . فَجاءَتْ كُتُبُهُم مُمِلَّةً جِداً . أَمَّا يُولِيوسُ قَيْصَرُ فَقَدْ كانَ ٱسْتِثْناءً . فَبِالإِضافَةِ إِلَى كَوْنِهِ قائِداً عَسْكَرِيّاً بارِزاً . كَانَ أَدِيباً تَعْرِضُ لَنا كُتُبُهُ صُورَةً حَيَوِيَّةً عَنْ حَياتِهِ وَأَيَّامِهِ .

كانت عبقريَّةُ هَنيبَعْل العَسْكَرِيَّةُ تفوقُ عبقريَّةَ قَيْصَر . فَهَلْ كَانَ ذلك القائِدُ أَديباً مُساوِياً لِقَيْصَر؟ هذا مَا لن نعرِفَهُ . إِذْ لم يَصلْنا شَيءٌ مِنْ كِتاباتِهِ . وَلٰكِنَّنا نَعْلَمُ مِنْ شِهادَةِ ٱلآخرينَ أَنَّهُ عامَلَ أَسْراهُ معامَلَةً تَفْضُلُ معامَلَةَ أَيِّ قائِدٍ رُومانيٍّ في زَمانِهِ . وَأَنَّهُ كَانَ قَائِداً ذا عَزيمَةٍ حَدِيدِيَّةٍ وَصَبْرٍ لا يَنْفَدُ . وَفَوْقَ هٰذا وَذَاكَ كانَ كلُّ ٱلَّذِينَ خَدَمُوا تَحْتَ إِمْرَتِهِ يَثِقُونَ بِهِ وَيُطِيعُونَهُ دُونَما سُؤال .

وَمِنْ هُنا يُمْكِنُ ٱلافتِراضُ بِأَنَّ هَنيبَعْلَ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِشَخْصِيَّةٍ آسِرَةٍ . وَهِيَ صِفَةٌ نَادِرَةٌ ، بَلْ عَجِيبَةٌ . يَتَفَاعَلُ مَعَهَا ٱلنَّاسُ بِشَكْلٍ غَرِيزِيٍّ . كَما أَنَّها ٱلظَّاهِرَةُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِمُعْظَمِ ٱلْمُمَثِّلِينَ وَٱلْخُطَبَاءِ ٱلنَّاجِحِينَ . وَعِنْدَما تُكَوِّنُ الجزءَ الرَّئيسيَّ في خُلُقِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ . فَإِنَّها تُوَلِّدُ نُفُوذاً طَاغِياً إِمَّا لِلخَيْرِ أَوْ لِلشَّر .

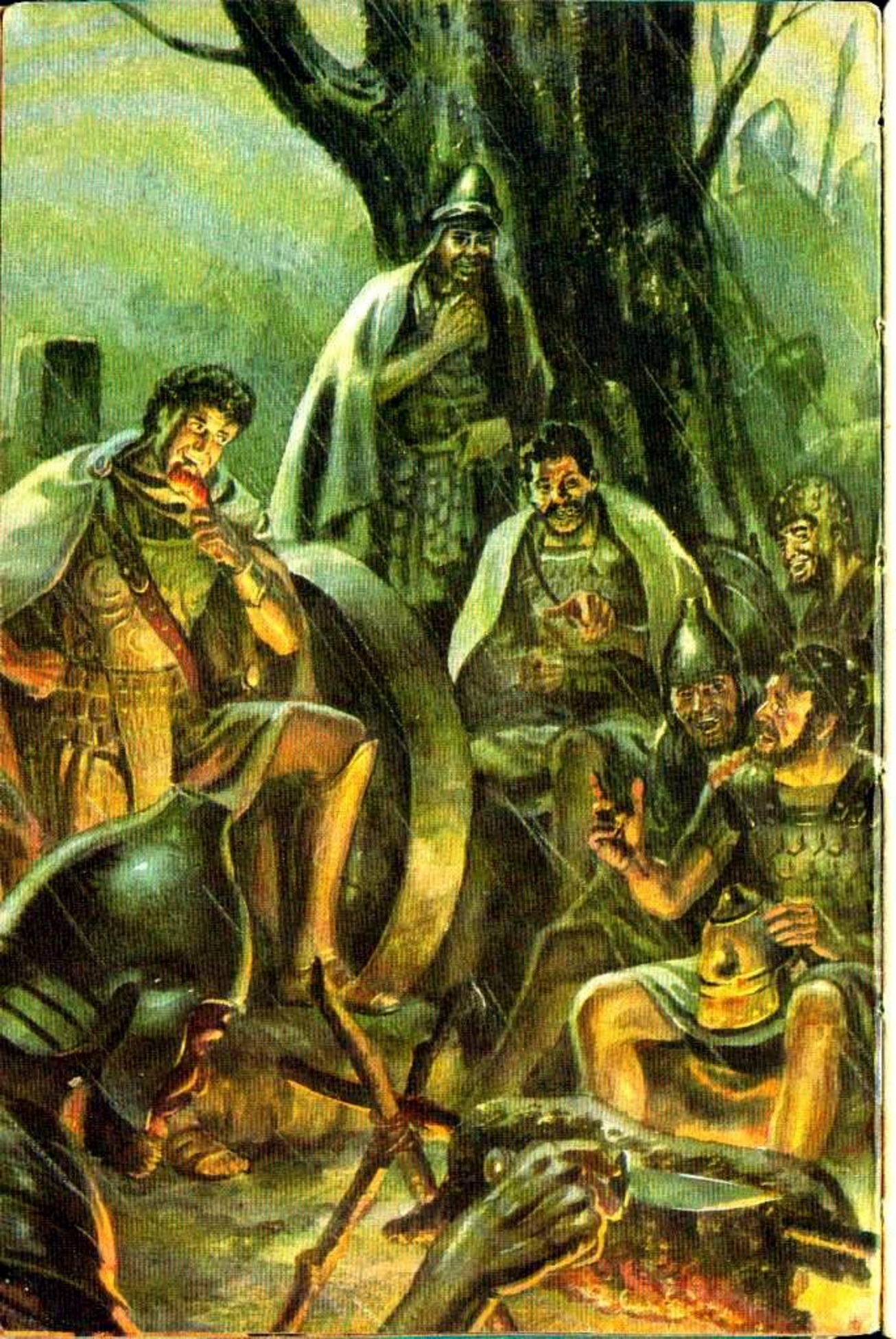

وَعِنْدَمَا ٱغْتِيلَ هَسْدْروبالُ كَانَ هَنيبَعْلُ في السَّادِسَةِ وَٱلعِشْرِينَ من عمرِهِ تَقْرِيباً ، ومع أَنَّ تاريخَ ميلادِ هَنِيبَعْل غَيرُ ثابتٍ فان ما ذكرناه عَنْ سِنِّهِ آنذاكَ ، قريبٌ جدّاً من ٱلصِّحَّةِ . وكانَ كُلٌّ مِنْ هَسْدْروبالَ وَهَنِيبَعْلَ قَائِداً يَحظَى بِثِقَةِ ٱلجَيْشِ وَوَلائِهِ . أمَّا هَنِيبَعْلُ فقد نَشَأَ بَينَ الجنودِ يُشارِكُهُم ٱلصِّعابَ وَٱلمَخَاطِرَ . أَثْبَتَ أَنَّهُ مُقَاتِلٌ جَرِيءٌ وقائِدٌ مَاهِرٌ . وَفَوْقَ هَذا وَذَاكَ كان نِعْمَ الرَّفيق . فَٱعْتَبَرَهُ رِجَالُهُ وَاحِداً مِنْهُم إِلَّا أَنَّهُم لَمْ يَتَرَدَّدُوا إِطْلاقاً فِي ٱلثِّقَةِ بِهِ وَإِطَاعَتِهِ كقائِدٍ .

قَدْ تَقْرَأُ في كُتُبٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّلْسِلَةِ عَنْ قَائِدَيْنِ شَابَّيْنِ نَاجِحَيْنِ آخَرَيْنِ هُما ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلأَكْبَرُ ٱلَّذي ٱجْتَازَ مَضِيقَ ٱلدَّرْدَنِيلِ وَهُوَ في الثَّانِيَةِ وَٱلعِشْرِينَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ ، وَنَابُولْيُونُ ٱلَّذِي قَادَ مَجْمُوعَةً ساخِطَةً مُفَكَّكَةً مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ أَلْفَ ضَابِطٍ وَجُنْدِيٍّ عَلَى وَشْكِ ٱلتَّمَرُّدِ . فَوْقَ ٱلثَّلْجِ وَٱلجَلِيدِ عَبْرَ مَمَرَّاتِ ٱلأَلْبِ إِلَى إيطالْيا . إِلَّا أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُما رَصِيداً غَيْرَ الشَّبَابِ .

فكانَ جُنُودُ ٱلإِسْكَنْدَرِ يَتْبَعُونَهُ بِكُلِّ تَفَانٍ آلافَ ٱلأَمْيَالِ . وكَانَتْ مَحَبَّةُ جُيُوشِ نَابُولْيُونَ وَطَاعَتُهَا هُما ٱللَّتانِ أَوْحَتَا بِاللَّقَبِ ٱلَّذي أَطْلَقَتْهُ هٰذِهِ ٱلجُيُوشُ عَلَيْهِ وَهُوَ – أَلعَرِيفُ ٱلصَّغيرُ .

لا يكفي أن يكون القائِدُ قديراً لِيَكْتَسِبَ تَفَانِيَ رِجَالِهِ . فَقَدْ تَعَلَّمَ ٱلاسْكَنْدَرُ مِنْ هُجُومِهِ على إِحْدَى ٱلمُدُنِ ٱلَّتي كانَتْ تَحْتَ سَيْطَرَةِ ٱلمَالِيِّينَ ، وَتَعَلَّمَ نابُولْيونُ عِنْدَ جِسْرِ لُودِي أَنَّ ٱلضَّابِطَ الذي يصيح بجنوده «إِتْبَعُوني» ، مَهْمَا كَانَتْ رُتْبَتُهُ ، لَهُوَ أَفْضَلُ قَائِداً مِنَ ٱلجِنِرالِ ٱلَّذِي يَصِيحُ بِجُنُودِهِ «تقدَّموا !» ، مَهْمَا عَلا صَوْتُهُ .

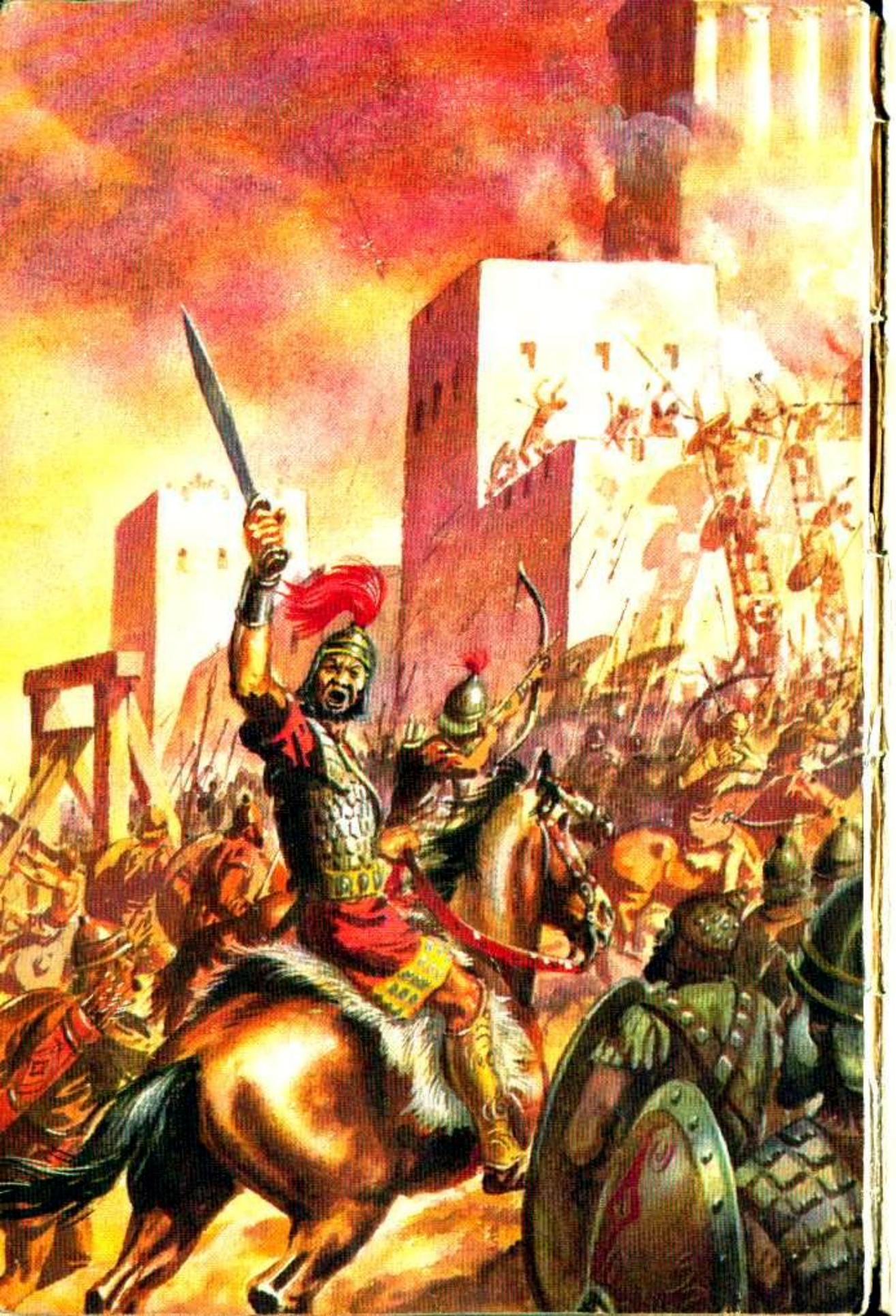

قُتِلَ هَسْدْروبَالُ وَهُوَ لَا يَزَالُ شَابّاً نِسْبِيّاً. وكانَ قد عَقَدَ مُعاهَدَةً غيرَ مُوَفَّقَةٍ مَعَ رُوما. وتَمَّ ٱلاتِّفاقُ بِمُوْجِبِ هٰذِهِ ٱلمُعَاهَدَةِ عَلَى أَنْ يَكُونَ نَهْرُ إِبْرو ٱلحَدَّ الشَّمالِيَّ لِلْمُسْتَعْمَرَةِ ٱلقَرْطَاجِيَّةِ في إِسْبانيا وَأَنْ تَبْقَى ٱلبِلادُ إِلى ٱلشَّمَالِ مِن ٱلنَّهْرِ تَحْتَ حُكْمِ رُوما. إِلّا أَنَّ هُنَاكَ ٱسْتِثْناءً وَاحِداً وَهُوَ أَنَّ مَدِينَةَ سَاغُنْتوم مَعَ مَرْفَئِها إِلى ٱلجَنوبِ مِنْ إِبْرو بَقِيَتْ رُومانِيَّةً.

وَإِذا نَظَرْنَا إِلى خَارِطَةِ إِسْبانيا نَرَى أَنَّ نَهْرَ إِبْرو يَنْبَعُ مِنْ جِبَالِ كَنْتَابْرا عَلَى بُعْدِ حَوَالَى ثمانينَ كِيلومتراً إِلى الْجنوبِ مِنْ بِيلْبَاو عَلَى ٱلسَّاحِلِ ٱلشَّمَالِيّ. وَيجْرِي بِٱتِّجَاهِ ٱلجَنُوبِ ٱلشَّرْقِيِّ مَسَافَةَ ٧٤٤ كيلومتراً لِيَصُبَّ في ٱلْبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلْمُتَوَسِّطِ. وَعَلى مَسَافَةِ ١٤٤ كيلومتراً تَقْرِيباً إِلى ٱلجَنُوبِ مِنْ مَصَبِّ إِبْرو تَقَعُ سَاغُنْتوم. وَمَعَ أَنَّ ٱلقِسْمَ ٱلأَكْبَرَ مِنْ إِسْبَانْيا بَقِيَ مُسْتَعْمَرَةً قَرْطاجِيَّةً. فَقَدْ كَانَ في وُسْعِ ٱلرُّومَانِ أَنْ يُنْزِلُوا إِلى ٱلْبَرِّ جَيْشاً غَازِياً وَأَنْ يُعَزِّزُوهُ مَتى شَاؤوا بِٱسْتِعْمالِهِمْ مَرْفَأَ سَاغُنْتوم.

وَكَانَ هَمِيلْكارُ باركا ٱلَّذي كَرِهَ رُوما يُدْرِكُ هٰذَا ٱلْخَطَرَ وَمَا كَانَ لِيُوافِقَ أَبَداً عَلَى ٱلْمُعَاهَدَةِ ٱلَّتي أَجْرَاهَا هَسْدْروبال. وَيُرَجَّحُ أَنَّ سَبَبَ تَصْمِيمِهِ عَلَى ٱحْتِلالِ إِسْبَانْيا كَانَ ٱلٱسْتِعْدَادَ لِغَزْوِ شَمَالِ إِيطالْيا عَبْرَ جِبَالِ ٱلأَلْبِ. وكان الأُسْطولُ الرُّوماني قَد أَصْبَحَ أَقْوَى بكثيرٍ مِنْ أُسْطُولِ قَرْطاجَةَ. فَٱضْطُرَّ هَنِيبَعْلُ إِلى ٱحْتِلالِ سَاغُنْتوم تَفادِياً لِخَطَرِ وُجُودِ جَيْشٍ رُوماني في مُؤَخِّرَتِهِ.

وَبِهٰذَا خَرَقَ ٱلْمُعَاهَدَةَ ٱلَّتي عَقَدَهَا هَسْدْروبال. وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ خيارٌ آخَرُ. فكفاءته العسكريَّةُ كانت أعظمَ من أَنْ يُعَرِّضَ نفسَه لذلك المأزق.

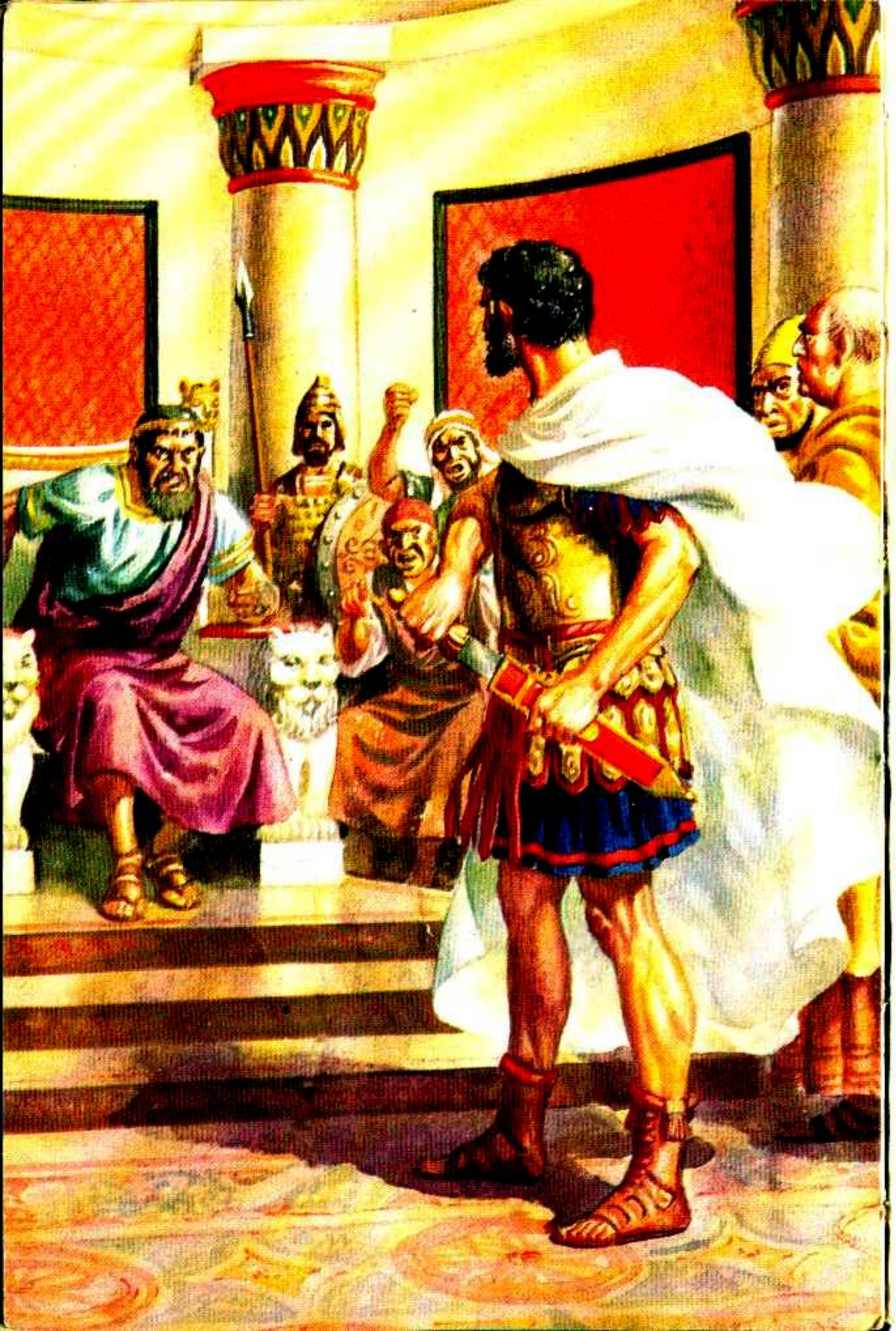

ضَرَبَ هَنِيبَعْلُ ٱلحِصَارَ عَلَى سَاغُنْتُوم فِي رَبِيعِ سَنَةِ ٢١٩ ق. م. عَلَى ٱلرَّغْمِ مِن ٱعْتِراضاتِ مَجْلِسِ ٱلشُّيُوخِ ٱلرُّومانيِّ. وَبَعْدَ ثَمانِيَةِ أَشْهُرٍ سَقَطَتْ سَاغُنْتُوم فِي يَدِيهِ، وَهَكَذَا زَالَ خَطَرُ ٱنْخِراطِهِ فِي قِتَالٍ فِي ٱلمُؤَخَّرَةِ.

وَنَحْنُ مَيَّالُونَ الى أَنْ نتمثَّلَ صُورَةَ روما باعتبارِهَا امبراطوريَّةَ ٱلقياصِرَةِ ٱلقَوِيَّةَ. غَيْرَ أَنَّ رُوما عَامَ ٢٠٠ ق. م. كَانَتْ غَيْرَ ذٰلِكَ تَماماً. إنَّ هنيبَعْل، عِندَما قَرَّرَ مُهَاجَمَةَ ساغُنْتُوم كَانَ يَتَحَدَّى عَدُوّاً يمكنُهُ أنْ يتغلَّب عليه.

وَٱسْتَغْرَقَ احْتِلالُ الحِصْنِ وَٱلمَرْفَأِ فِي سَاغُنْتُوم وَقْتاً أَكْثَرَ مِمَّا قَدَّرَهُ هَنِيبَعْلُ. وَسَبَبُ ذلك أن ٱلسُّفُنَ ٱلرُّومانِيَّةَ كانت قادرةً عَلَى إمدادِ المدينةِ بَحْراً بالمُؤَنِ والرِّجَالِ. وَعِنْدَمَا زالَ خَطَرُ هذا الجَيْبِ الروماني أَصْبَحَ فِي وُسْعِ هَنِيبَعْلَ أنْ يَزْحَفَ شَمالاً بِحُرِّيَّةٍ.

سَبَقَ لِلرُّومانِ أنْ أَنْذَرُوا ٱلقَرطاجِيِّينَ بِأَنَّ ٱلهُجُومَ عَلَى سَاغُنْتُوم ستَكُونُ لَهُ عواقِبُ وَخِيمَةٌ. أمَّا ٱلآنَ فَقَدْ أَصَرُّوا عَلَى أَنْ يُسَلَّمَ لَهُم هَنِيبَعْلُ أَسيراً مُقَيَّداً بِٱلسَّلاسِلِ، وَأَنْ تَعُودَ حَامِيَةٌ رُومانِيَّةٌ إلى ٱحْتِلالِ مَرْفَأِ سَاغُنْتُوم. وقد وَقَفَ المَبعُوثُ الرومانيُّ الى قَرْطَاجَةَ أمامَ مَجْلِسِ الشُّيوخِ ٱلقَرْطاجِيِّ وِقْفَةَ تَعَجْرُفٍ مُوَجِّهاً اليه تهديدَه. فكان ذلكَ مَشْهَداً مثيراً. لَقَدْ صَاحَ بِقَوْلِهِ: «جِئْتُكُمْ بِٱلسِّلْمِ أَو بِٱلحَرْبِ. فَٱخْتَارُوا!» فاجابَهُ الشُّيوخ بِهُدُوءٍ: «ما تختاره أنت؟». فَطَرَحَ السَّفيرُ عَنْهُ عَبَاءَةَ السَّلامِ ٱلبَيْضَاءَ ووضَعَ يَدَه على سيفِهِ وَصَاحَ: «هٰذا هُوَ رَدُّ رُوما!»

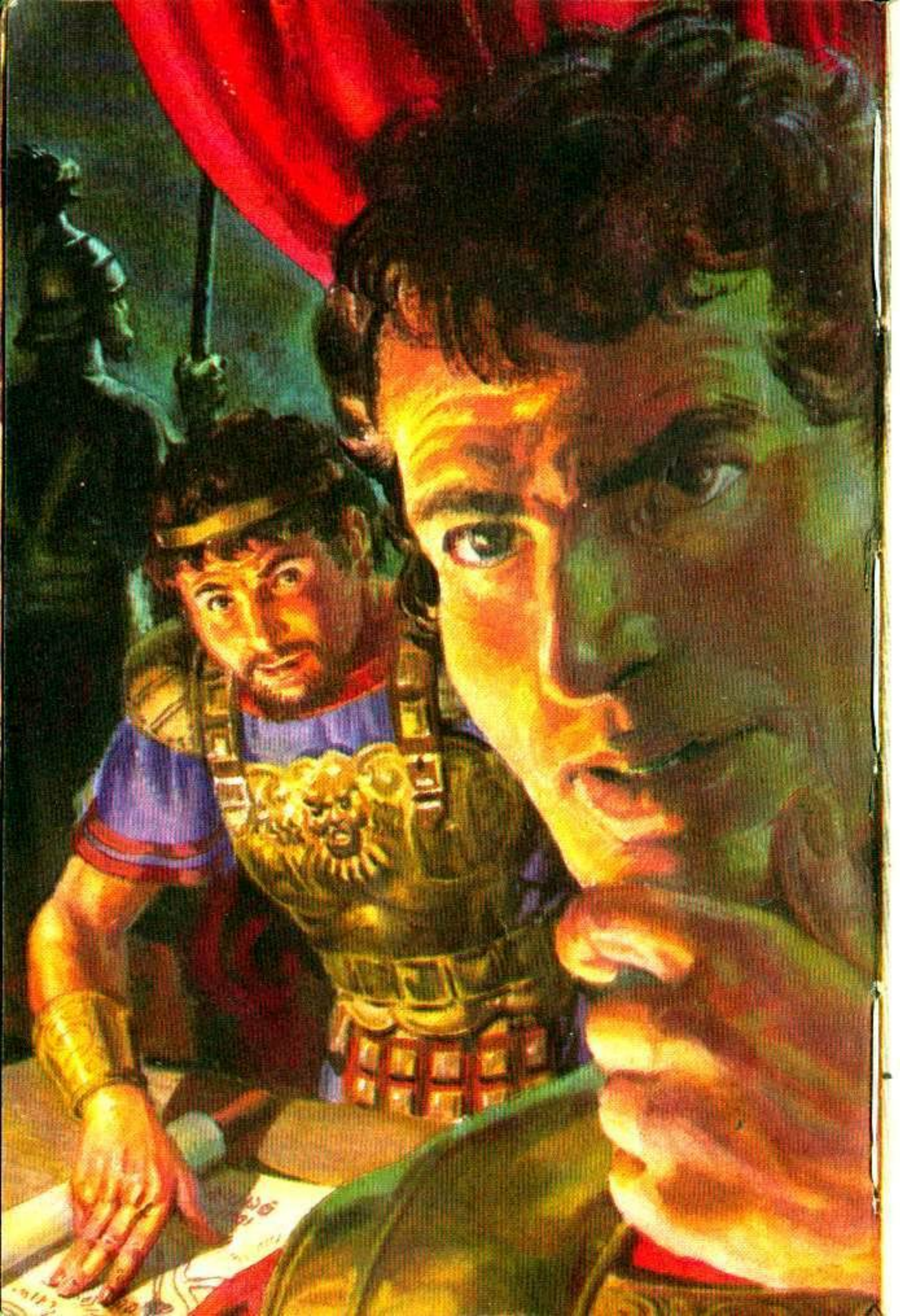

اتُّخِذَت الانهارُ عَبْرَ التَّارِيخِ حُدُوداً فاصِلَةً . فَاجْتِيازُ أَحَدِهَا إِذَا كَانَتْ لَهُ أَحْيَاناً أَهَمِّيَّتُهُ . وَيَصْدُقُ هٰذا عَلَى عُبورِ قَيْصَرَ نَهرَ رُوبِيكُون عِنْدَما قَالَ : « ما كانَ قَدْ كان » . يَعْنِي أَنَّهُ قَدْ أَقْدَمَ عَلَى أَمْرٍ لَا رُجُوعَ عَنْهُ .

وَعُبُورُ هَنِيبَعْلَ نَهرَ إِبْرو لَهُ أَهَمِّيَّةٌ مُمَاثِلَةٌ . وقد كان هذا النَّهرُ خِلافاً لِنَهْرِ رُوبِيكون ، مَحْمِيّاً حِمَايَةً قويَّةً . وَمَا انْ أَصْبَحَ هَنِيبَعْلُ عَلَى ضِفَّتِهِ الأُخْرَى حَتَّى أَدْرَكَ أَنَّهُ سَيُواجِهُ مِئَاتِ الكيلومترات مِنَ الأَرْضِ الشَّدِيدَةِ الْوُعُورَةِ وَسِلْسِلَتَيْنِ مِنَ الجِبَالِ هُما الْبيرينه وَالأَلْب . وَنَهْرُ الرُّون . الْمَعْبَرُ الْحَصِينُ الآخَرُ . يَمُرُّ بَيْنَ هَاتَيْنِ السِّلْسِلَتَيْنِ . وكَانَتْ طَرِيقُهُ ، عَمَلِيّاً ، تَمُرُّ عَبْرَ أَراضٍ تَقْطُنُهَا الْقَبَائِلُ السِّلْتِيَّةُ الْمُعَادِيَةُ مَعَ وُجودِ حَامِيَاتٍ رُومَانِيَّةٍ في مَواقِعَ رَئِيسِيَّةٍ .

وَلا نَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكَهَا هَنِيبَعْلُ . وَحَتَّى في أيامِنا هٰذِهِ فإِنَّ السَّيْرَ مِنْ طَرْطُوشَةَ على نَهْرِ إِبْرو إلى روما لَيْسَ بالأَمْرِ الْيَسِيرِ . وَلَكَ ان تَتَخَيَّلَ ما كانَ عَلَى الْجُنُودِ أَنْ يُلاقُوهُ في أَيَّامِ هَنِيبَعْلَ وَمَعَهُم عَرَبَاتٌ تَجُرُّها الْثِّيرانُ وَفِيَلَةٌ تَحمِلُ الْمُؤَنَ . بِالإِضافةِ إِلى خَطرِ وُقُوعِ هُجومٍ عَلَيهِم مِنْ جانِبِ قَبَائِلَ مُتَوَحِّشَةٍ ترميهم بالصُّخورِ .

وكَانَ لِهَنِيبَعْل أَخٌ أَصْغَرُ مِنْهُ اسْمُهُ هَسْدْرُوبال بارْكا - ونذكر أَنَّ صِهْرَه الذي مات غيلةً كان اسمُهُ أيضاً هَسْدْرُوبَال . وكَانَ هَسْدْرُوبال بارْكا كذلك ضَابِطاً مُدَرَّباً . وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ الأَخَوَيْنِ عاكِفَيْنِ عَلَى دِرَاسَةِ الْخُطَطِ الَّتِي وَضَعَهَا وَالِدُهُمَا هَمِيلْكار . لَقَدْ وَاجَهَ الْقائِدان الْشَّابانِ حَمَلَةً عَسْكَرِيَّةً غَايَةً في الصُّعوبة . وكَانَ هَمِيلكار يُلَقِّبُ هَسْدْروبال وَهَنِيبَعْل بأَنَّهما « شِبلا الأَسَدِ » . وَسُرْعَانَ مَا أَثْبَتَا أَنَّهُ كانَ عَلَى صَوَابٍ .

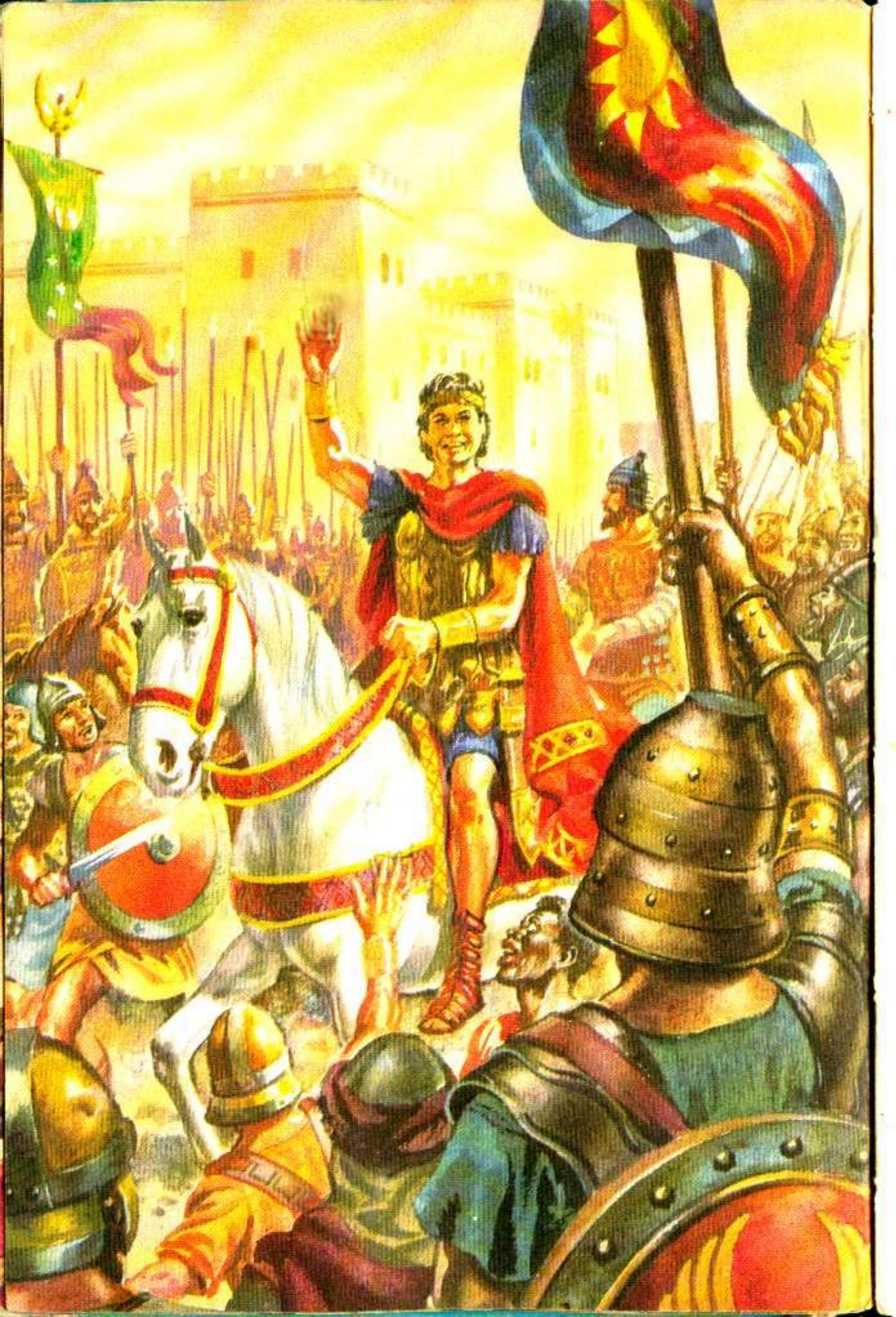

إنَّ صُعوباتِ ٱلسَّيْرِ ٱلطَّوِيلِ مَعَ ٱلتَّعَرُّضِ لِلْهُجُومِ ٱلْمُسْتَمِرِّ تكفي لِثَنْيِ قائِدٍ دونَ هنيبَعْل عَزِيمَةً عن غايتِهِ . غَيْرَ أَنَّ هَنِيبَعْلَ كَانَ قَدْ أَقْسَمَ يَمِيناً قَاطِعَةً بِأَنْ يُوَاصِلَ الحَمْلَةَ عَلَى رُومَا . وكان يعتقِدُ اعْتِقَاداً رَاسِخاً أَنَّ الحِنْثَ بِهٰذِهِ ٱلْيَمِينِ سَيُسَبِّبُ كَارِثَةً .

وكَانَ ٱلْجَيْشُ ٱلَّذِي تحْتَ إِمْرَتِهِ سَبَباً أَكْبَرَ لِلقَلَقِ . فَرِجَالُهُ متنوِّعون أجناساً وألواناً . فَمِنْ فُرْسَانٍ نُوميديِّينَ مِنْ إفريقيا إلى غَالِيِّين مِنْ إسْبانيا – لُغاتُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ وأَساليبُهم في ٱلقِتَالِ مُتَفَاوتةٌ جدّاً ، كَما انَّهُم مِنْ بُلْدَانٍ يُنَاصِبُ بَعْضُها بَعْضاً ٱلعَداوَةَ ٱلمَرِيرَةَ . فكانُوا يُحَارِبُونَ كَجُنُودٍ مُرْتَزِقَةٍ . أَيْ فِي سَبِيلِ ٱلأَجْرِ ، وَهُوَ ضَئِيلٌ جِدّاً ، وَطَمَعاً بِالأَسْلابِ ، وَهِيَ كَبِيرَةٌ إذا قُيِّضَ لَهُمُ ٱلنَّصْرُ .

أَمَّا ٱلجَيْشُ ٱلرُّومَانِيُّ فكَانَ بِالْمُقَابِلِ مؤلَّفاً في مُعْظَمِهِ مِنْ رِجَالٍ متجانِسينَ عِرْقاً ولُغَةً وفَوْقَ ذٰلِكَ كَانُوا يُقَاتِلونَ دِفَاعاً عَنْ وَطَنِهِمْ بِبَسَالَةِ ٱلجُنُودِ ٱلْمُدَرَّبِينَ وَوَلاءِ ٱلْمُواطِنِين . فَكَانَتْ حُروبُ ٱلطَّرَفَيْنِ صِراعاً بَيْنَ ٱلوَطَنِيَّةِ وَٱلطَّمَعِ .

وَلَمْ يَكُنْ هَنِيبَعْلُ ٱلَّذِي بَلَغَ مِنَ ٱلخِبْرَةِ ٱلعَسْكَرِيَّةِ شَأْواً بَعِيداً لِيُسْقِطَ كُلَّ هٰذِهِ ٱلأُمورِ مِنْ حِسَابِهِ . فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ ٱلكَثِيرَ مِنْ رِجَالِهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ جَمِيعُهُمْ ، لَيْسُوا مُدَرَّبِين ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُنَظَّمِينَ تَنْظِيماً حَسَناً . وَلَمْ يَأْلَفُوا ٱلاَنْضِبَاط ، وَأَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ فِي سَبِيلِ دَوَافِعَ دونَ دَوَافِعِ ٱلرُّومَانِ رُسُوخاً . وَلِهٰذَا فَإِنَّهُ اتَّكَلَ على شيءٍ آخَرَ . فَقَدْ كَانَ جَيْشُهُ مُؤَلَّفاً مِنْ رِجَالٍ ، مَهْمَا تَكُنْ كَرَاهِيَةُ أَحَدِهِمْ لِلآخَرِ ، مُخْلِصِينَ كُلَّ ٱلإِخْلاصِ لِشَخْصِهِ . وَهٰذَا ٱلعَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلمُعَادَلَةَ مُخْتَلِفَةً كُلَّ ٱلاَخْتِلافِ .

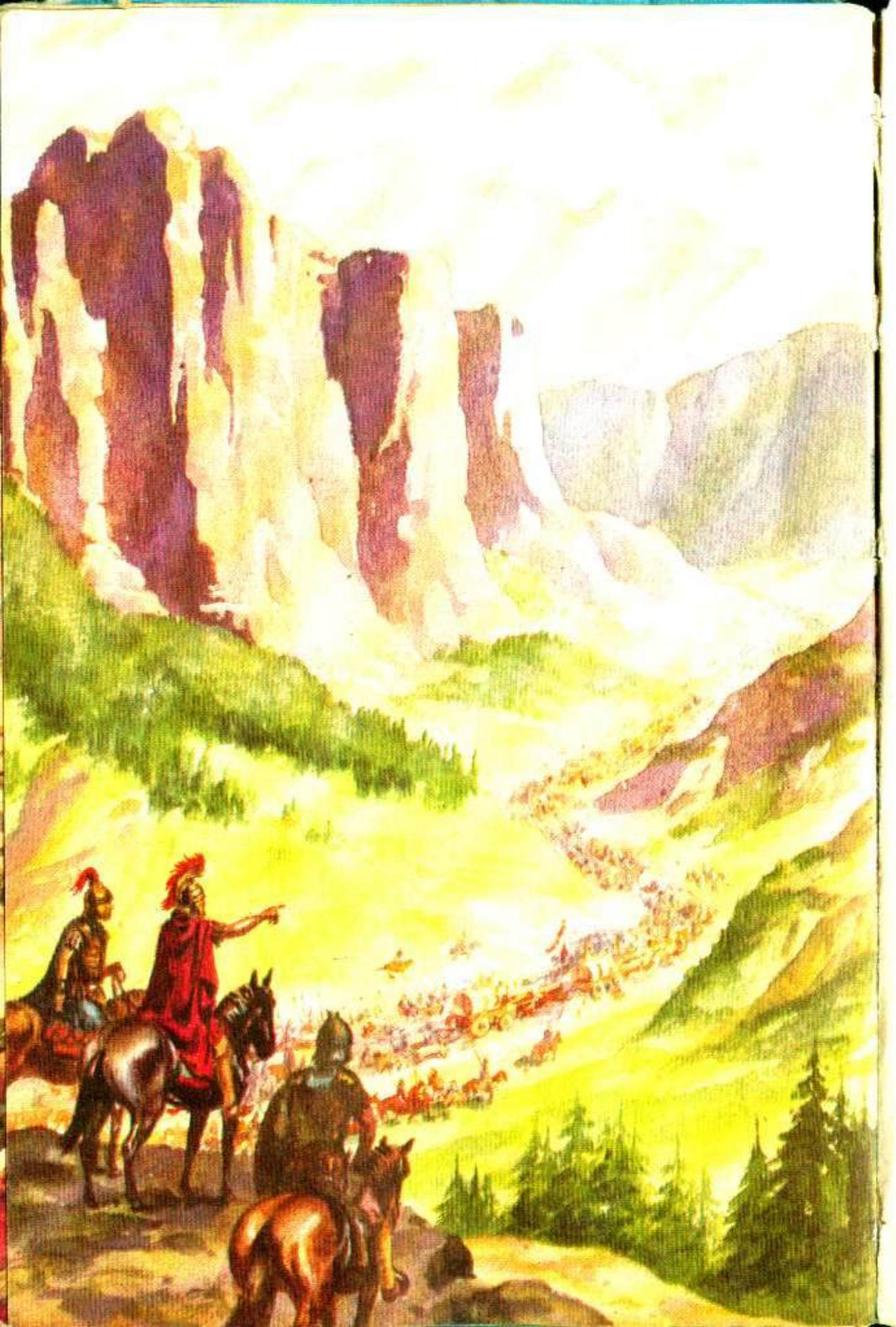

عَلَى قَائِدِ ٱلجَيْشِ ٱلعَصْرِيِّ ٱلَّذِي يَخطَّطُ لِلتَّقَدُّمِ أَنْ يَعْرِفَ سَلَفاً مَا إِذَا كَانَت ٱلطَّرِيقُ عَرِيضَةً وَٱلجُسُورُ قَوِيَّةً إِلَى حَدٍّ يَكْفِي لِمُرُورِ دَبَّابَاتِهِ أَوْ مَدافِعِهِ ٱلضَّخْمَةِ . فَيَدْرُسَ ٱلخَرَائِطَ وَٱلصُّوَرَ ٱلمُلتَقَطَةَ مِنَ ٱلجَوِّ وَتَقَارِيرَ الجَوَاسِيسِ ، بَلْ والصُّوَرَ ٱلَّتِي يَلْتَقِطُها ٱلسَّيَّاحُ لِلْمَسَابِحِ وَٱلشَّواطِىءِ ٱلصَّخْرِيَّةِ .

إِنَّ فُرَصاً كَهٰذِهِ لَمْ تَكُنْ مُتَوَفِّرَة لِهَنِيبَعْلَ . فَٱلجَوَاسِيسُ لَمْ يَكُونُوا مَصْدَرَ ثِقَةٍ . وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ خَرَائِطُ لِطُرُقٍ حَيْثُ لَا وُجُودَ لِلطُّرُقِ . وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ أَحَدٍ أَنَّ مِنَ ٱلمُفِيدِ رَسْمَ خَرائِطَ لِدُروبٍ بَيْنَ قَرْيَةٍ وَأُخْرَى . فَٱلقِلَّةُ مِنَ السُّكانِ ٱلمَحَلِّيِّينَ ٱلَّذِينَ كانوا يَستخدمون هٰذِهِ ٱلدُّرُوبَ كَانُوا يَبْلُغُونَ مَقَاصِدَهُمْ أَوْ لَا يَبْلُغُونَها . وكان ٱلنَّاسُ يفترضونَ أَنَّ الذين لم يَصلوا ذَهَبوا فَرِيسَةَ ٱلذِّئاب . ولَو أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الخَرائِطِ وُجِدَت لما كان لها فائِدَةٌ عمليةٌ .

لَمْ يَكُنْ لِهَنِيبَعْلَ بِطَبِيعة ٱلحَالِ دَبَّاباتٌ ، بَلْ فِيَلَةٌ وَعَرَبَاتٌ ثَقِيلَةٌ غَيْرُ مُتْقَنَةِ ٱلصُّنْعِ تَجُرُّها مَجْمُوعاتٌ مِنَ ٱلثِّيرَانِ . فَكَانَ جَحْفَلُهُ مِنَ ٱلمُشَاةِ وَٱلفُرْسَانِ وَعَرَبَاتِ ٱلتَّمْوِينِ يَمْتَدُّ أَمْيَالاً . وَحَيْثُما يَكُونُ مَوْقِعُ قَائِدِ ٱلجَيْشِ ، لَم يَكُنْ باسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَعْرِفَ يَقِيناً مَاذَا يَحْدُثُ لِجُزْءٍ مِنَ ٱلجَحْفَلِ عَلَى بُعْدِ عَشَرَةِ كيلومتراتٍ أو عِشرِينَ كيلومتراً مِنْهُ .

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ لَدَى هَنِيبَعْلَ ضُبَّاطُ فُرْسَانٍ يَعْدُونَ عَلَى طُولِ ٱلجَحْفَلِ يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَهُ أَوْ يُزَوِّدُونَهُ بِأَخْبَارِ أَيِّ هُجُومٍ . وَرُبَّمَا ٱسْتَغْرَقَتْهُم ٱلعَوْدَةُ عَبْرَ ٱلدُّرُوبِ ٱلصَّخْرِيَّةِ ٱلمُتَقَطِّعَةِ سَاعَاتٍ عِدَّةً ، هٰذَا إِذَا تَمَكَّنُوا مِنَ ٱلعَوْدَةِ . وَقَدْ يَتَعَذَّرُ عَلَى ٱلفِيلِ أَنْ يَجتَازَ مَمَرّاً جَبَلِيّاً ضَيِّقاً شَقَّ عَلَى جَانِبٍ شَدِيدِ الٱنْحِدَارِ .

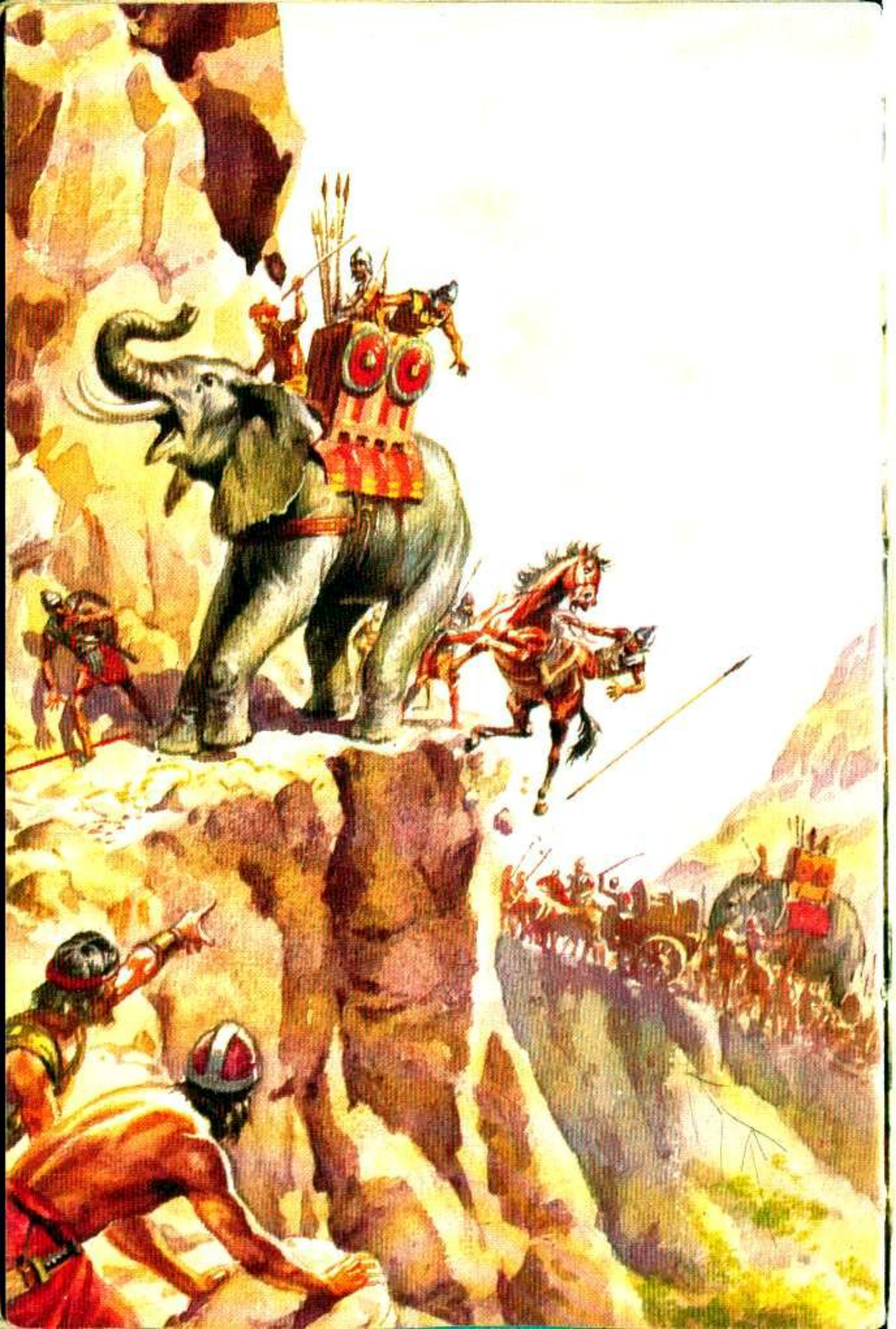

عَبَرَ هَنِيبَعْلُ نَهْرَ إِبْرو بين أَواخِرِ شَهْرِ أَيّار (مايو) وَأَوائِلِ شَهْرِ تَمُّوزَ (يُولْيه).
وكَانَ أَمَلُهُ أَنْ يَجْتَازَ ٱلنَّهْرَ دُونَ كَبيرِ صُعُوبَةٍ. غَيْرَ أَنَّ ٱلقَبَائِلَ ٱلسَّلْتِيَّةَ، رَغْمَ عَداوَتِها لِرُوما، لَمْ تَكُنْ مُسْتَعِدَّةً لِلتَّرْحِيبِ بِجَيْشٍ قَرْطَاجِيٍّ. ولا شَكَّ أَنَّ ٱجْتِيازَ هٰذِهِ ٱلعَقَبَةِ الكَأداءِ ٱلأُولَى في مَسيرَةٍ طَوِيلَةٍ قَدْ عَلَّمت ٱلجَيْشَ ٱلقَرْطَاجِيَّ ٱلمُخْتَلَطَ ٱلشَّيْءَ ٱلكَثِيرَ.

وَمِنَ ٱلمُهِمِّ حِينَ مُطَالَعَةِ حَمْلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ، سَواءٌ في ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ أَو ٱلحَدِيثِ، أَنْ نَتَتَبَّعَ عَلَى ٱلخَارِطَةِ ٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي سَلَكَتْها الحَمْلَةُ. وَإِذَا كَانَت ٱلخَارِطَةُ عَلَى نَحْوٍ يُظْهِرُ تضاريسَ ٱلبِلَادِ من أَنْهَارٍ وجِبالٍ وسُهُولٍ بالألوانِ، أَمْكَنَ تَصَوُّرُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ٱلحَالُ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَي سَنَةٍ. لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ، في ذلك العَصْرِ، طُرُقٌ مُعَبَّدَةٌ وَسِكَكٌ حَدِيدِيَّةٌ وَمُدُنٌ وَمَطَاراتٌ غَيْرَ أَنَّ ٱلجِبَالَ وَٱلأَنْهَارَ هِيَ نَفْسُها لَمْ تَتَغَيَّرْ.

وَإِذَا تَنَاوَلْنا أَيَّ أَطْلَسٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّنا عَلَى أَنَّهُ كُلَّما ٱقْتَرَبَ هَنِيبَعْلُ مِنْ ٱلسَّاحِلِ زَادَتْ طَرِيقُهُ سُهُولَةً. فَجِبَالُ ٱلبِيرِينه لَيْسَتْ بِارْتِفَاعِ جِبَالِ ٱلأَلْبِ وليست بصعوبتِها عِنْدَ ٱلاجْتِيَازِ. وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَسْلُكَ هَنِيبَعْلُ أَسْهَلَ ٱلسُّبُلِ.

وَإِذا تَتَبَّعْنَا عَلَى ٱلخَارِطَةِ مَمَرَّ ٱلخَطِّ ٱلحَدِيدِيِّ بَيْنَ طَرْطُوشَةَ في إِسْبَانيا وَبيرِينيا في فَرَنْسَا. فَمِنَ المُرَجَّحِ أَنْ لَا نَكُونَ بَعِيدِينَ جِدّاً عَنْ خَطِّ سَيْرِ هَنِيبَعْلَ وَأَفْيالِهِ. وَمَعَ أَنَّ ٱلأَفْيَالَ تَكُونُ مُفِيدَةً جِدّاً في غَالِبِ ٱلأَحْيَانِ، فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَنِيبَعْل قَدْ تَمَنَّى أَحْيَاناً لَوْ أَنَّهُ لَم يَجْلِبْهَا مَعَهُ. وَلَوْ سَأَلْنا أَيّاً كَانَ عمّا يعرفُ عَنْ هَنِيبَعْلَ لَكَانَ جَوابُهُ عَلَى ٱلأَرجَحِ أَنَّهُ ذاكَ ٱلَّذي عَبَرَ جِبَالَ ٱلأَلْبِ بِعَدَدٍ مِنَ ٱلفِيَلَةِ.

إنَّ الأَرْضَ المُمْتَدَّةَ مِنْ نَهْرِ إبرُو إلَى جِبَالِ ٱلبيرينه لَيْسَتْ صَعْبَةً جِدّاً عَلَى جَيْشٍ يَزِيدُ تَعْدادُهُ عَلَى مِئَةِ أَلْفِ رَجُل ، مِنْهُمْ حَوالَى اثْنَي عَشَرَ أَلفاً مِنَ ٱلفُرْسانِ. فَهِيَ أَرْضٌ مِنْ نوعٍ أَلِفُوهُ. وَمِنَ ٱلأَعْمَالِ ٱلَّتِي يَقُومُ بِها أَيُّ جَيْشٍ حَتَّى فِي يَوْمِنا ٱلحاضِرِ، تَنْظِيفُ ٱلطَّرِيقِ عَبْرَ ٱلأَراضِي ٱلوَعْرَةِ. وَفِي هٰذا ٱلمَجالِ بِالذَّاتِ وَجَدَ هَنِيبَعْلُ قُوَّةَ ٱلأَفْيالِ مُفِيدَةً جِدّاً. فَقَدْ أَزالَت ٱلحِجارَةَ ٱلكَبِيرَةَ وَٱلأَشْجارَ ٱلسّاقِطَةَ ٱلَّتِي كانَتْ تَسُدُّ طَرِيقَ ٱلعَرَباتِ ٱلَّتِي تَجُرُّها ٱلثِّيرانُ ، كَما انَّ ٱلأَفْيالَ كانَت تَنْتَشِلُ ٱلعَرَباتِ إذا ما عَلِقَتْ فِي أَوْحالِ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ وَعَجِزَتِ ٱلثِّيرانُ عَنْ سَحْبِها.

وكانَ أَمَلُ هَنِيبَعْلَ أَنْ لا يَخْسَرَ رِجالاً أَوْ وَقْتاً قَبْلَ وُصُولِهِ إلَى حاجِزِ جِبالِ ٱلأَلْبِ. إلّا أَنَّهُ نَجَحَ نَجاحاً جُزْئِيّاً فِي ذٰلِكَ. فَقَدِ ٱسْتَطاعَ ٱستِمالَةَ بَعْضِ ٱلقَبائِلِ ٱلَّتِي صادَفَها عَنْ طَرِيقِ ٱلإِقْناعِ أَوِ ٱلرَّشْوَةِ لِتَسْمَحَ لِجَيْشِهِ بِٱلمُرُورِ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَها ٱلآخَرَ عَمَدَ إلَى مَا نُسَمِّيهِ اليومَ بِحَرْبِ ٱلعِصاباتِ. وَلِمُعالَجَةِ هٰذِهِ ٱلقَبائِلِ وَٱلتَّأَكُّدِ مِنَ ٱسْتِتْبابِ ٱلأَمْنِ فِي ٱلمَناطِقِ ٱلَّتِي يَتْرُكُها هَنِيبَعْلُ وَراءَهُ ، أَفْرَزَ قُوَّةً مِنْ قُرابَةِ عَشَرَةِ آلافِ رَجُلٍ لِهٰذا ٱلغَرَضِ.

وَيُرَجَّحُ أَنَّ ٱلجَحْفَلَ ٱلغازِيَ ٱلطَّوِيلَ ٱلبَطِيءَ وَٱلمَكْشُوفَ ٱلجَوانِبِ قَدِ ٱجْتازَ سُفُوحَ ٱلبيرينه مِنْ مَمَرٍّ يُعْرَفُ بِٱسْمِ كُول دي بانول. وَلَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ لِلتَّأَكُّدِ مِن ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذي سَلَكَهُ هَنِيبَعْلُ. وَلٰكِنْ لا بُدَّ مِنْ أَنَّهُ كانَ يَرْغَبُ فِي ٱلبَقاءِ قُرْبَ ٱلسّاحِلِ قَدْرَ ٱلمُسْتَطاعِ. وَٱلْيَوْمَ تَمُرُّ ٱلخُطُوطُ ٱلحَدِيدِيَّةُ عَبْرَ ٱلأَنْفاقِ فِي ٱلجِبالِ. أَمّا هَنِيبَعْلُ فَكانَ مُضْطَرّاً لِلمُرُورِ فَوْقَ القِمَمِ أَوْ عَبْرَ ٱلمَغاوِرِ ٱلصَّخْرِيَّةِ.

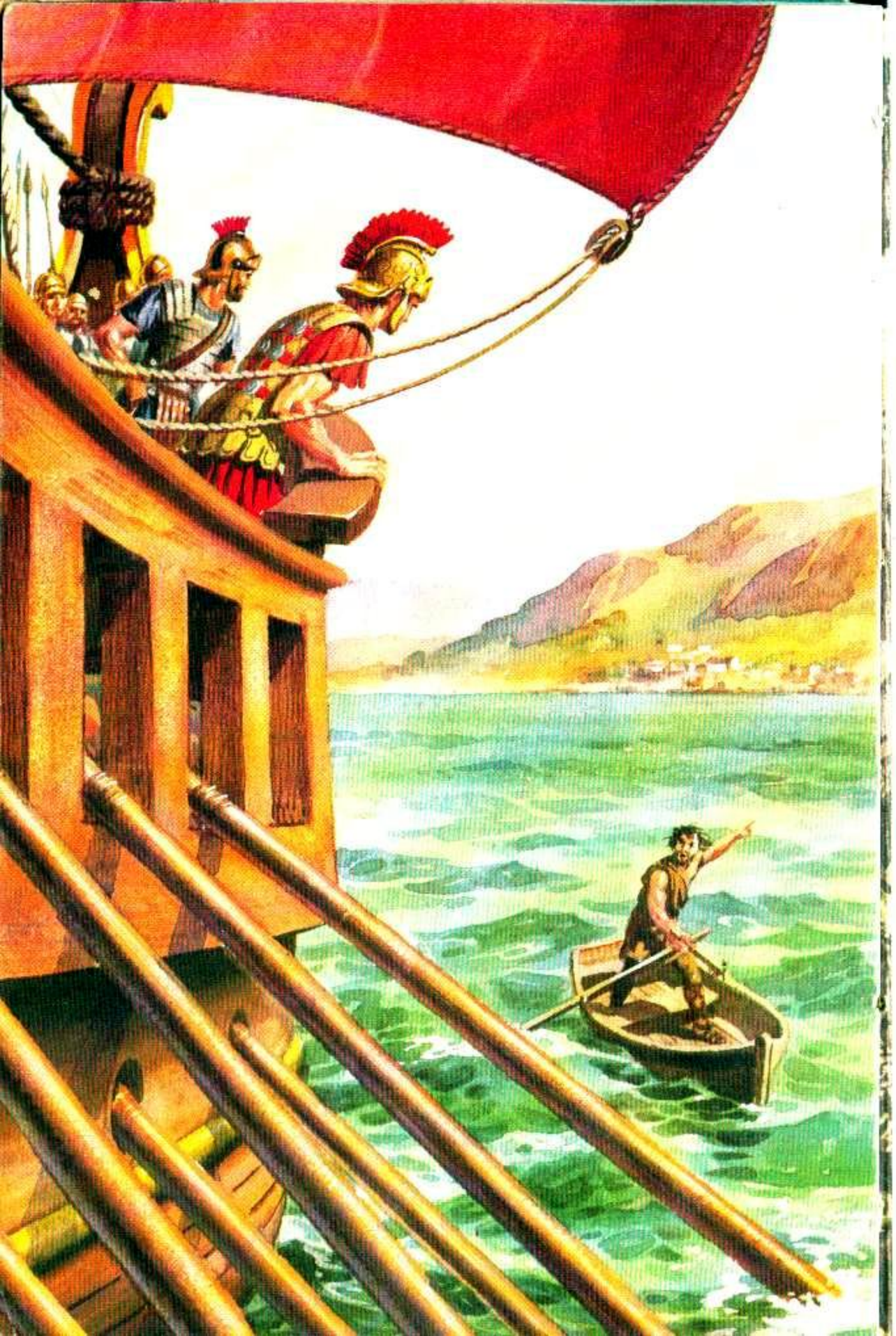

وَفِي هٰذِهِ ٱلأَثْنَاءِ أَرْسَلَ ٱلرُّومَانُ أُسْطُولاً بِقِيَادَةِ بوبليوس سيبيو لِغَزْوِ إِسْبَانِيَا . وَكَانَ ٱلْقَصْدُ ٱلاتِّصالَ بِجَيْشٍ رُومانِيٍّ آخَرَ يَعْبُرُ ٱلْبِلادَ مِنْ إِفْرِيقِيا . وَعَلَى طَرِيقِ ٱلسَّاحِلِ ٱلْفَرَنْسِيِّ ٱلطَّوِيلِ تَوَقَّفَ سِيبيُو فِي مَرْسِيلْيا لِيَطَّلِعَ عَلَى مَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ عَنِ ٱلْجَيْشِ ٱلْقَرْطَاجِيِّ ٱلْغازِي . وَقَدْ ذُهِلَ حِينَ عَلِمَ أَنَّ هَنِيبَعْلَ قَدْ وَصَلَ مُنْذُ مُدَّةٍ إِلَى ٱلرُّون .

أَمَّا هَنِيبَعْلُ فَلَمْ يُضِعْ وَقْتاً . وَقَدْ أَدْرَكَ قِيمَةَ ٱلْمُبَاغَتَةِ ، كَما أَدْرَكَها نَابُوليون بَعْدَهُ بِأَلْفَيْ سَنَةٍ . فَحَثَّ ٱلْخُطَى إِلَى أَنْ وَصَلَ وَادِي ٱلرُّونِ وَقَطَعَ ٱلنَّهْرَ وَتَقَدَّمَ شَمَالاً قَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ سِيبيو إِلى البرِّ جُنْدَهُ ٱلَّذِينَ أَصابَهُم دُوَارُ ٱلْبَحْرِ . إِلَّا أَنَّ سيبيُو قَرَّرَ ٱلتَّحَرُّكَ بِسُرْعَةٍ . فَأَلْغَى ٱلْغَزْوَةَ ٱلْمُقْتَرَحَةَ لِإِسبانيا ، وَجَعَلَ مُهِمَّتَهُ ٱلأُولى ٱلْعُثورَ عَلى جَيْشِ هَنيبَعْلَ وَتَدْمِيرَهُ .

أَمَّا مِنْ أَيَّةِ نُقْطَةٍ قَطَعَ هَنيبَعْلُ نَهرَ الرُّونَ ، فلا نَدْرِي ، وَلٰكِنْ يُرَجَّحُ أَنَّها حَيْثُ ٱلْمِياهُ ضَحْلَةٌ نِسْبِيّاً فَوْقَ بَلْدَةِ آرْل . وَلَوْ أَنَّهُ تَحَوَّلَ عَنِ ٱلسَّاحِلِ كَيْ يَتَجَنَّبَ ٱلْمُسْتَنْقَعَاتِ وَٱلْبُحَيْرَاتِ ٱلْمَالِحَةَ بَيْنَ سِيتَ وَمَصَبِّ ٱلرُّون ، لَمَا اتَّبَعَ ٱلطَّرِيقَ ٱلأَقْصَرَ فَحَسْبُ ، بَلْ وَلَسَلَكَ ٱلضِّفَّةَ ٱلْغَرْبِيَّةَ للرُّونِ ٱلأَصْغَرِ عِوَضاً عَنْ قَطْعِهِ . وَلَوَجَدَ نَفْسَهُ حَيْثُ يَتَفَرَّعُ ٱلرُّونُ .

وأَيّاً كانت نقطةُ ٱجْتِيازِهِ ، فَإِنَّ ٱلْغَالِيِّينَ ٱلْمَحَلِّيِّينَ عَلَى ٱلضِّفَّةِ ٱلأُخْرَى كَانُوا مُصَمِّمِينَ عَلَى صَدِّ ٱلْعُبُورِ . وَرُبَّمَا كَانَ فِي وُسْعِ قَافِلَةٍ مِنْ سَبْعَةٍ وَثَلاثِينَ فِيلاً مُنْدَفِعاً نحو ٱلْبَرِّ أَنْ تُلقِيَ ٱلرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّ أَفْيَالاً تُحاوِلُ ٱلنُّزُولَ إِلى ٱلْبَرِّ فَوْقَ طَوَّافاتٍ نِصْفُهَا غَارِقٌ تَحْتَ ٱلْمَاءِ ، شَيءٌ آخَرُ مُخْتَلِفٌ . كَما أَنَّ الفرسان ٱلنُّومِيدِيِّين كَانُوا فِي وَضْعٍ سَيِّءٍ .

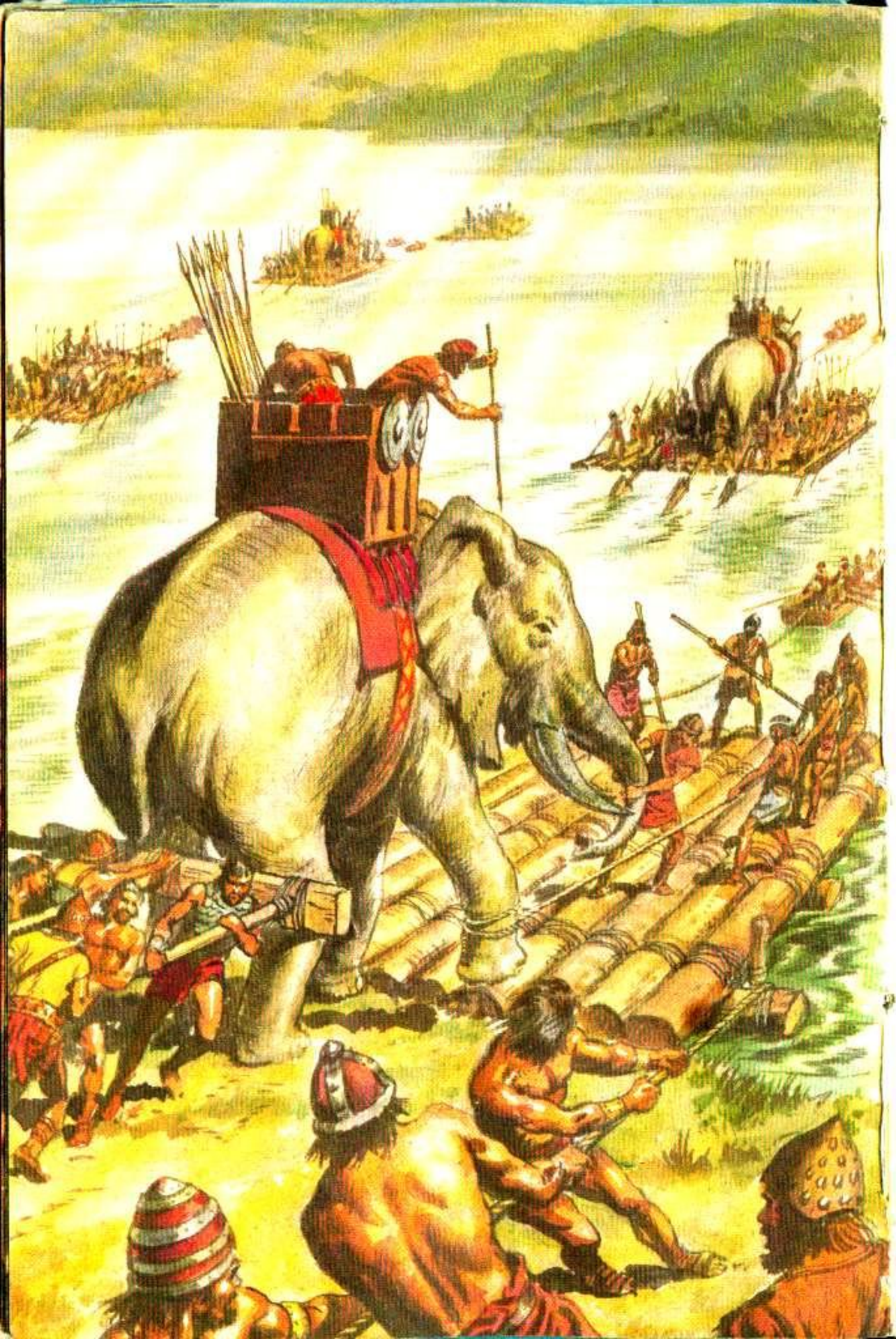

وَلَمْ يَسْتَخِفَّ هَنِيبَعْلُ بِصُعُوبَةِ قَطْعِ نَهْرٍ يَزِيدُ عَرْضُهُ على كيلومترٍ ونصْفِ الكيلومتر. رغْمَ أَنَّ جَيْشَهُ كَانَ حِينَذَاكَ قَدْ تَنَاقَصَ عَدَدُهُ إِلى نَحْوِ سِتِّينَ أَلْفَ رَجُلٍ. أما السُّكَّان على جانِبَي النَّهرِ فقد كانوا من قبيلةِ فُولكيه ٱلغَالِيَّةِ ٱلمُحَارِبَةِ. غَيْرَ أَنَّ سُكَّانَ ٱلضِّفَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ آثَرُوا ٱلبَقَاءَ عَلى ٱلحِيَادِ، بَلْ إِنَّهُمْ سَاعَدُوا بِبِنَاءِ ٱلطَّوَّافَاتِ مِنْ جُذُوعِ ٱلأَشْجَارِ عَنْ طَرِيقِ رَبْطِهَا مَعاً. وَبَيْعِهِم هَنِيبَعْل بِأَسعارٍ مُغْرِية قَوَارِبَ صَيْدِ ٱلسَّمَكِ ٱلصَّغِيرَةَ.

وَخِلالَ ٱلْيَوْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ قَضَاهُمَا هَنِيبَعْلُ فِي هٰذِهِ ٱلتَّحْضِيراتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ، كَانَتْ قَبِيلَةُ فُولكيه ٱلمُعادِيَةُ عَلَى ٱلضِّفَةِ ٱلْبَعِيدَةِ مِنَ ٱلنَّهْرِ. وَٱلَّتِي لَمْ يُسْمَحْ لأَفْرادها بِقَبُولِ أَيَّةِ رَشْوَةٍ، مَا زَالَتْ تَتَشَدَّقُ بِمَا سَيُلاقِيهِ أَيُّ قَرْطَاجِيٍّ يُحَاوِلُ ٱلعُبُورَ. أَمَّا هَنِيبَعْلُ فَلَمْ يَتْرُكِ ٱلأُمُورَ تَجْرِي فِي أَعِنَّتِهَا، فَأَوْفَدَ عَشَرَةَ آلافِ رَجُلٍ لِلْعُبُورِ مِنْ أَعْلَى ٱلنَّهْرِ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ ٱلفُولكيه. وَفَجْأَةً وَجَدَ ٱلغَالِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ عُرْضَةً لِهُجومِ ٱلأُلُوفِ مِنْ مُقَاتِلِينَ أَشِدَّاءَ مُسَلَّحِينَ أَحْسَنَ تَسْلِيحٍ يكرُّونَ عَلَى جَناحِهِم، فِي حِينِ كانوا يَتَوَقَّعُونَ مُجَابَهَةَ رجالٍ مُبَلَّلِينَ وَعَلَى وَشْكِ ٱلغَرَقِ وَهُمْ يَنْزَلِقُونَ مِنْ عَلَى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ. وَهُنَا فَرَّ رِجَالُ الفولكيه.

وَهٰكَذا ٱسْتَطَاعَ هَنِيبَعْلُ ٱلعُبُورَ دُونما مُعَارَضَةٍ. وَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ أَدْنى مُعَارَضَةٍ لاَسْتَحَالَتْ عَلَيْهِ مُهِمَّةُ نَقْلِ عَرَبَاتِهِ ٱلثَّقِيلَةِ مَعَ ثِيرَانِها عَبْرَ نَهْرٍ جَارٍ يَزِيدُ عَرْضُهُ على كيلومترٍ ونصفِ الكيلومترِ. فَعِوَضاً عَنِ ٱلرِّمَاحِ ٱلمُعادِيَةِ، استقبلته هُوَ وَرِجَالَهُ أيدٍ صَدِيقَةٌ مُعِينَةٌ.

وَمَا انْ عَبَرَ رِجَالُهُ وَحَيَواناته ٱلنَّهْرَ، حَتَّى تَوَجَّهَ هَنِيبَعْلُ شَمَالاً. وَرُبَّمَا كان قد عَلِم أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ سيبيو قَدْ أَنْزَلَ فِعْلاً فَيْلَقاً مِنْ رِجَالِهِ فِي مَرْسِيلْيا.

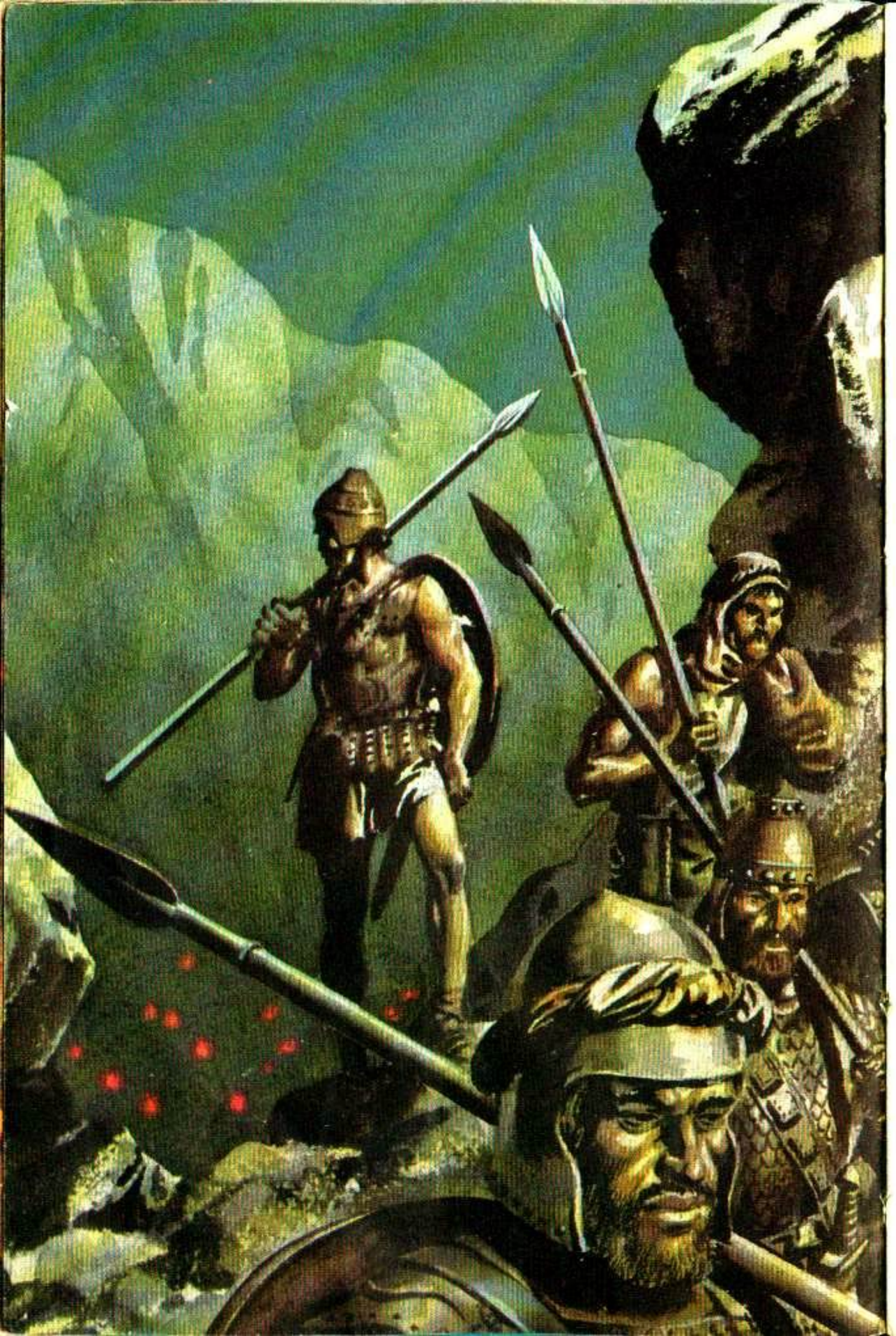

كَانَ شَهْرُ تشرينَ ٱلأَوَّلِ (أُكْتوبَر) قَدْ حَلَّ ، وَمَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ عَلَى عُبورِ نَهْرِ إِبْرو ، وَلا يَزالُ بَيْنَ هَنِيبَعْلَ وَشَمالِ إِيطالْيَا ٱلحَاجِزُ ٱلطَّبيعيُّ ٱلهائِلُ وَهُوَ جِبالُ ٱلأَلْبِ . وَلَنْ تَلْبَثَ ٱلمَمَرَّاتُ المُمْكِنُ عُبُورُهَا أَنْ تُسدَّ بالثُّلُوجِ . وَلَمْ يَكُنْ في وُسْعِ هَنِيبَعْل ٱنْتِظَارُ حُلُولِ ٱلصَّيْفِ ، فَحِينَذَاكَ تَكُونُ ٱلفَيالِقُ ٱلرُّومانِيَّةُ تَقُومُ بِحِراسَةِ ٱلنُّزُولِ إِلى ٱلسُّهُولِ . وَكَانَ هَنِيبَعْلُ ، شَأْنُهُ شَأْنُ نَابُوليون ، يَكْسِبُ ٱلمَعَارِكَ بِالهُجُومِ ٱلمُباغِتِ عَلَى ٱلعَدوِّ حِينَ لا يَتَوقَّعُهُ . وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ ٱلرُّومانِ أَنَّ في ٱسْتِطَاعَةِ جَيْشٍ عُبورَ مَمَرَّاتِ ٱلأَلْبِ قَبْلَ أَنْ يُذيبَ ٱلرَّبيعُ ثُلُوجَ الشِّتَاءِ .

بَعْدَ أَلْفَيْ سَنَةٍ مِنْ هَنِيبَعْلَ ، وَاجَهَ نابُوليونُ هٰذِهِ ٱلظُّروفَ نَفْسَها ، وَكَانَ هُوَ ٱلآخَرَ يَقُودُ جَيْشاً إِلى إِيطاليا فَوْقَ جِبالِ ٱلأَلْبِ ٱلمَكْسُوَّةِ بِالثُّلُوجِ . أَلْفا سَنَةٍ لَمْ تُحْدِثْ سِوَى ٱخْتِلافٍ قَليلٍ . كَتَبَ نَابوليونُ يَقولُ : « إِنَّنا نُصارِعُ ٱلجَليدَ وَٱلثَّلْجَ وَٱلأَنواءَ وَٱلانْهِياراتِ ٱلثَّلْجِيَّةَ ! » عَلَى ٱلأَقَلِّ عَرَفَ نابوليونُ أَيْنَ كانَ ٱلمَمَرُّ ، وَأَنَّ ٱلتُّجارَ كَانوا يَسْلُكُونَهُ بِدَوابِّهِمْ طَوالَ فَصْلِ ٱلصَّيْفِ .

عَبَرَ نابوليونُ مَمَرَّ سان برنار ٱلكبير . وَهُوَ أَبْعَدُ شَمالاً بِكثيرٍ مِنْ ذَاكَ ٱلذي عَبَرَهُ هَنِيبَعْلُ إِلَى إِيطاليا . وَلَسْنا بِحاجَةٍ ٱلْيَوْمَ إِلى عُبُورِ هَذا ٱلمَمَرِّ إِلَّا إِذا كُنَّا نَرْغَبُ في ذٰلِكَ : فَإِمَّا أَنْ نَطيرَ أُلُوفَ الأمتارِ فَوْقَهُ ، أَوْ نُسافِرَ بِالْقِطَارِ تَحْتَهُ . وَفي كِلا ٱلْحالَيْنِ نَشْعُرُ بِٱلدِّفْءِ وَٱلرَّاحَةِ . غَيْرَ أَنَّ كُلاًّ مِنْ نَابوليونَ وَهَنِيبَعْلَ كَانَ مَقْرُوراً وَمُبْتَلاً وَجائِعاً وَمَنْهُوكاً ، إِذْ إِنَّ كِلَيْهِمَا كَانَ مُسْتَعِداً لِمُشارَكَةِ رِجالِهِ كُلَّ هٰذِهِ ٱلمَشَقَّاتِ ، الأَمْرُ ٱلَّذي أَكْسَبَهُ تَفانِيَ جَيْشِهِ .

وَفي مَمَرٍّ صَعْبٍ ضَيِّقٍ خَدَعَ هَنِيبَعْلُ ٱلقَبَائِلَ ٱلمُعَادِيَةَ بِحِيلَةٍ قَدِيمَةٍ جِدّاً ، إِذْ تَرَكَ نِيرانَ ٱلمُعَسْكَرِ مُشْتَعِلَةً بَعْدَ أَنْ غَادَرَهُ جَيْشُهُ .

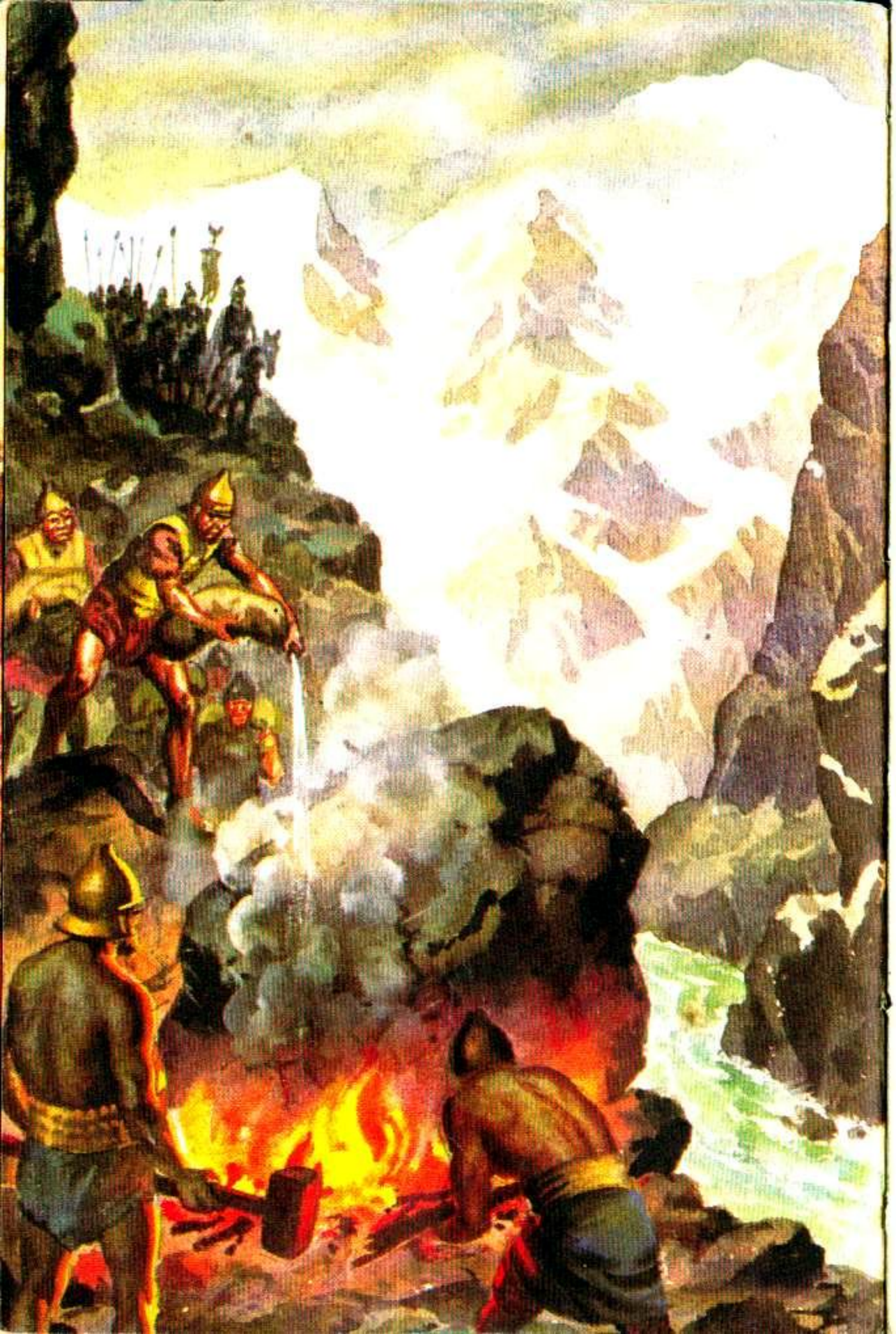

لَمْ يَكُنْ هَنِيبَعْلُ يَعْرِفُ شَيْئاً عَنْ مَمَرَّاتِ جِبَالِ ٱلأَلْبِ ، كَمَا كَانَتْ قَبْلَ أَلْفَيْ سَنَة . فَكَانَ مُضْطَرّاً إِلى ٱلاعتِمادِ عَلى مُرْشِدِينَ قَدَّمَهُمُ ٱلغَالِيُّونَ ٱلمَحَلِّيُّونَ ، وَغَالِباً مَا كَانُوا خَوَنَةً وَعِدَائِيِّينَ .

وَكَثِيراً ما كَانَت ٱلكُتَلُ ٱلصَّخْرِيَّةُ ٱلمُنْهَارَةُ مِنَ ٱلأَعَالِي تَسُدُّ ٱلشِّعَابَ وَٱلأَخَادِيدَ ٱلضَّيِّقَةَ . وَيَحْتَاجُ مُهَنْدِسُ ٱلطُّرُقِ فِي أَيَّامِنَا هٰذِهِ إِلى جَرَّافاتٍ وَمُتَفَجِّراتٍ قَوِيَّةٍ لإِزَالَتِها . وَلَمْ يَكُنْ لَدَى هَنِيبَعْلَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ . وحين كَانَ مِنَ ٱلضَّرُورِيِّ إِزَالَةُ هٰذِهِ الكُتَلِ لِتَوْسِيعِ ٱلدَّرْبِ ، كان رِجَالُهُ يُشْعِلُونَ ٱلنَّارَ تَحْتَهَا . وَمَتى حَمِيَ ٱلصَّخْرُ صَبُّوا عَلَيْهِ ٱلنَّبِيذَ المُخَلَّل ٱلبَارِدَ . وَبِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ يَتَصَدَّعُ أَصْلَبُ ٱلحِجَارَةِ ثُمَّ يُقَطَّعُ وَيُنقَلُ مِنْ مَكَانِهِ .

وَالأَفْيَالُ تَحْتَاجُ إِلى كَمِّيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ ٱلأَكْلِ ، وَكَانَتْ أَقَلَّ قُدْرَةً على تَحَمُّلِ الجوعِ من ٱلرِّجالِ . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ أَلِفَتِ ٱلبَرْدَ وَهِيَ تَكْرَهُ ٱلمَمَرَّاتِ ٱلضَّيِّقَةَ ٱلمُغَطَّاةَ بِالْجَلِيدِ وَٱلثَّلْجِ . وَكَمْ تَدَهْوَرَ مِنْ عَرَبَاتٍ وَثيرانٍ مِنْ فَوْقِ ٱلأَخَادِيدِ ٱلأَنْحِدَارِيَّةِ أَوْ جَرَفَتْهَا ٱلسُّيُولُ ٱلمُتَدَفِّقَةُ مِنَ ٱلجِبَالِ . وَكَانَ هُنَاكَ دائِماً خَطَرُ ٱلأَنْهِيارَاتِ ٱلثَّلْجِيَّةِ وَٱلصُّخُورِ ٱلمُتَسَاقِطَةِ . لَا شَكَّ أَنَّ هٰذا ٱخْتِبارٌ مُرِيعٌ حَتَّى وَلَوْ مِنْ غَيْرِ هَجَمَاتِ ٱلسُّكَّانِ ٱلْمَحَلِّيِّين ٱلعِدائِيِّين ٱلمُبَاغِتَةِ . فَلا غَرْوَ أَنْ يَتراءَى لِلرُّومانِ أَنَّ ٱلاجْتِيَازَ مُسْتَحِيلٌ .

لَقَدِ ٱخْتَلَفَ ٱلمُؤَرِّخُونَ وَمُصَمِّمُو ٱلخَرَائِطِ ، وَسَيَبْقَوْنَ مُخْتَلِفِينَ حَوْلَ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّتِي ٱجْتَازَ مِنْهَا هَنِيبَعْل جِبَالَ ٱلأَلْبِ . وَيَقُولُ ٱلكُتَّابُ ٱلمُحْدَثُونَ أَنَّهُ ٱتَّبَعَ طَرِيقَ جَدَاوِلِ ٱلأَلْبِ مِثْل دْرُوم ودُوْرَانس وَغِيْل وكْرِيسْتِيُّون . أَمَّا ٱلشَّيءُ ٱلمُهِمُّ حَقّاً فَهُوَ أَنَّهُ نَجَحَ .

أَمْضَى هَنِيبَعْلُ وَجَحْفَلُهُ ٱلطَّوِيلُ ٱلهَائِمُ أَكْثَرَ مِنْ أُسْبُوعَيْنِ فِي ٱجْتِيَازِ ٱلأَلْبِ. وَكَانَا أُسْبُوعَيْنِ مِنَ ٱلبَرْدِ ٱلقَارِسِ وَٱلجُوعِ ٱلفَتَّاكِ وَٱلجُهْدِ ٱلمُضْنِي ٱلمُسْتَمِرِّ. وَمَا انْ تَمَّ ٱلوصولُ إلى آخِرِ قِمَّةٍ حَتَّى جَمَعَ هَنِيبَعْلُ سَرَايَاهُ ٱلرَّئِيسِيَّةَ وَلَفَتَ نَظَرَ عَنَاصِرِهَا المُنْهَكَةِ ٱلخَائِرَةِ ٱلَّتِي ٱسْتَبَدَّ بِها ٱلجُوعُ إلى ٱلوَادِي تَحْتَها. وَقَدْ كَتَبَ ٱلمُؤَرِّخُ ٱلرُّومَانِيُّ لِقِي بَعْدَ مائةِ سَنَةٍ يَصِفُ ذاكَ ٱلمَشْهَدَ يَقُولُ:

صَاحَ هَنِيبَعْلُ: «أَمَامَكُمْ بلادٌ صَدِيقَةٌ. ٱلسُّكَّانُ سَيُرَحِّبُونَ بِنَا كَأَصْدِقَاءَ وَحُلَفَاءَ ضِدَّ ٱلرُّومانِ ٱلَّذِينَ يَمْقُتُونَهُمْ. وَأَنْتُم ٱلَّذِينَ قَهَرْتُمْ أَسْوَأَ ما يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ الطَّبِيعَةُ، فِي أَصْعَبِ بَلَدٍ فِي ٱلعَالَمِ، لَا عَلَيْكُم أَنْ تَخَافوا جُيُوشاً مِنْ أَشْبَاهِ ٱلرِّجَالِ. إِتْبَعُونِي! فَالنَّصْرُ مُؤَكَّدٌ! أَلطَّرِيقُ مَفْتُوحٌ، وَٱلغَنِيمَةُ هِيَ رُوما!»

إِنْتَعَشَتِ ٱلآمالُ وَبَدَأَ ٱلجَيْشُ ٱلنُّزولَ الصَّعْبَ، حَيْثُ كانت أَيَّةُ زَلَّةٍ أَوْ كَبْوَةٍ تَعْنِي ٱلسُّقُوطَ مِنَ ٱرْتِفَاعِ مِئاتِ الامتار على ٱلصُّخُورِ. وقد فُقِدَ ٱلعَدِيدُ مِنَ ٱلحَيَوَاناتِ وَٱلرِّجالِ، وَلَكِنْ تَمَّ أَخيراً ٱلوُصُولُ إلى ٱلأَرْضِ. وَتَمَكَّنَ ٱلجُنُودُ مِن ٱلتَّخْيِيمِ، إِنْ لَمْ يَكُن فِي رَاحَةٍ، فَعَلَى الأَقَلِّ فِي ظُرُوفٍ أَفْضَلَ مِنْ تِلْكَ ٱلَّتِي عرفُوهَا مُنْذُ أَنْ بَدَأُوا ٱجْتِيَازَ ٱلأَلْبِ.

وَبَعْدَ أَلْفَي سَنَةٍ مِنْ ذٰلِكَ، شَجَّعَ نابوليونُ رِجَالَهُ ٱلمُهَلْهَلِينَ الجِيَاعَ ٱلمُتَمَرِّدِينَ بِالإِشارَةِ إلى ٱلوادي ٱلخصيبِ ذاته. وَٱلْيَومَ يَقْطَعُ السَّيَّاحُ جِبَالَ ٱلأَلْبِ نَفْسَهَا طائِرِينَ عَالِياً فَوْقَ وَادي ٱلرُّونِ خلالَ دقائِقَ أَقَلَّ عَدَداً مِنَ ٱلأَيَّامِ ٱلَّتِي ٱسْتَغْرَقَهَا هَنِيبَعْلُ. وَيَرَوْنَ تَحتَهُم ٱلسَّهْلَ ٱلخَصِيبَ ٱلَّذِي عَانَتْ جُيُوشُ هَنِيبَعْلَ وَنابوليونَ الأَمَرَّيْنِ فِي ٱلوُصُولِ إِلَيْهِ.

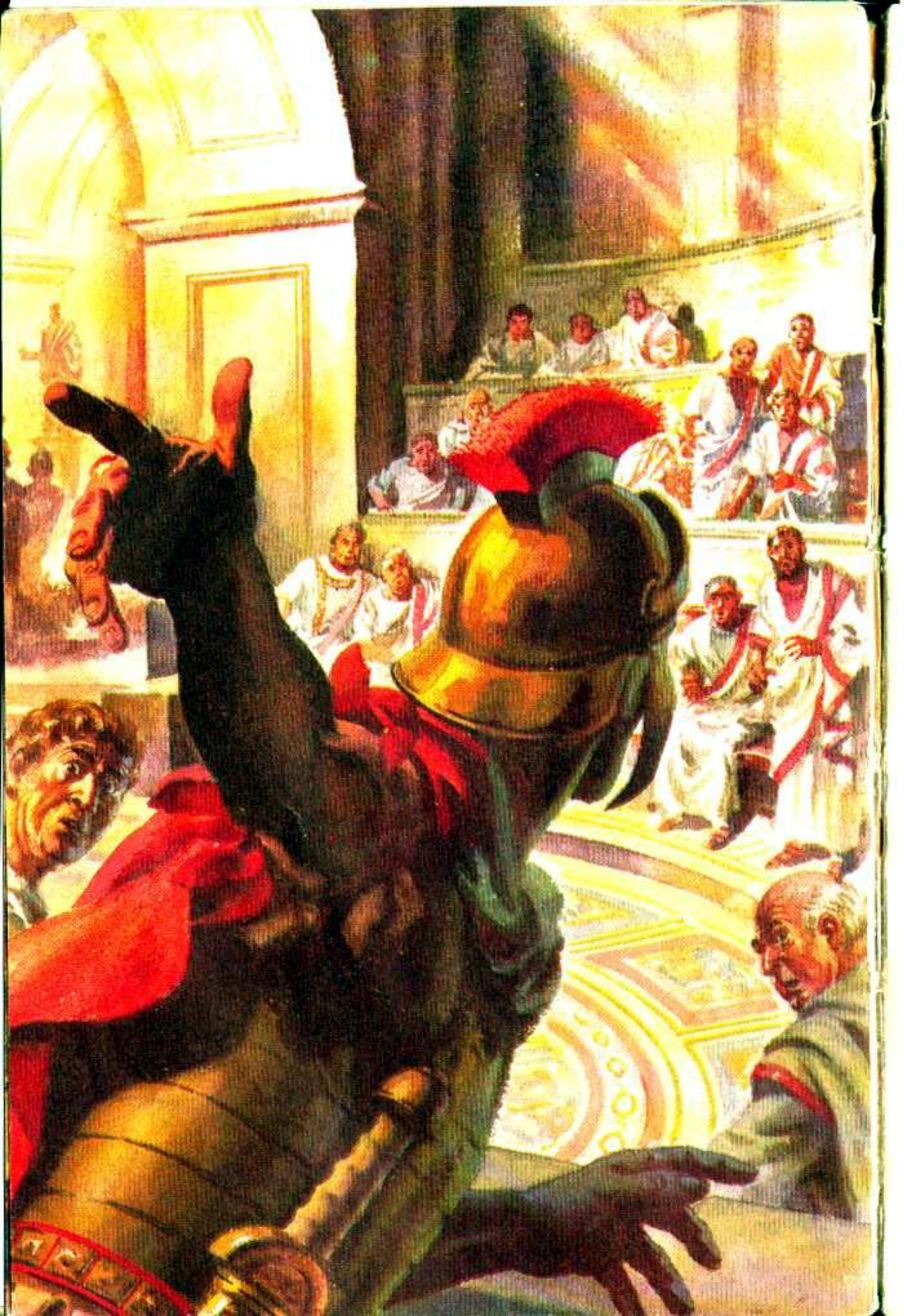

ركَنَ هَنِيبَعْل إلى مُساعَدَةِ سُكَّانِ ٱلسُّفوحِ ، وَهُمْ عَدَدٌ مِنْ قَبائِلَ غالِيَّةٍ صَغيرَةٍ كانت ، عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ كَراهِيَتِها كُلَّها لِرُوما . تَكُنُّ إحداهَا للقبائلِ ٱلأُخرى كَراهِيَةً أَشَدَّ وأدْهَى . فكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْنِعَهَا أَنَّ روما سَتَنْهارُ كُلِّيّاً إذَا مَا سَاعَدَتْهُ هذِهِ ٱلقَبائِلُ . وَلكِنَّها كَانَتْ تَشُكُّ في ذٰلِكَ لِسَبَبٍ مَفْهُومٍ . فَقَد ٱلتَقَتْ تلك ٱلقَبائلُ فِرَقَ رُوما ٱلحَسَنَةَ ٱلتَسَلُّحِ وَٱلمُدَرَّبَةَ تَدريباً مُمْتَازاً . وَحِينَ نَظَرَ القَبَلِيُّونَ إلى ٱلرِّجالِ ٱلمَنهُوكينَ ٱلجائِعينَ ، بَدا لَهُم أَنَّهُ يَستَحِيلُ عَلَيْهِم كَسْبُ مَعْرَكَةٍ وَاحِدَةٍ .

غَيْرَ أَنَّ ٱلإِقْناعَ وَعَرْضَ القُوَّةِ جَعَلا بَعْضَهُمْ يُغَيِّرُ رَأْيَهُ . وكَانَ لا يَزالُ لَدى هَنِيبَعْلَ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ ألفَ رَجُلٍ ، بَيْنَهُمُ ٱلفُرْسانُ ٱلنُّوميديُّون ٱلأَشِدَّاءُ وَأَفْيالُهُ . وكانَ عَلى ٱلغالِيِّينَ أنْ يَختَارُوا بَيْنَ جَيْشٍ هُوَ في دِيارِهِم ، وَٱلفَيالِقِ ٱلرومانيَّةِ ٱلَّتي قَدْ تَهُبُّ أَوْ لا تَهُبُّ لِنَجْدَتِهِم .

أَلْفَيالِقُ ٱلرُّومانِيَّةُ كَانَتْ أَقْرَبَ مِمَّا تَوَقَّعَهُ ٱلغالِيّونَ أو هَنِيبَعْلُ . وَعِنْدَمَا أَخْفَقَ سِيبيو في مُلاقَاةِ ٱلجَيْشِ ٱلقَرطاجِيِّ ، أَعَادَ جُنودَهُ إلى ٱلسُّفُنِ وَقَفَلَ رَاجِعاً إلى رُوما . وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ مَجْلِسِ ٱلشُّيوخِ ٱلرُّوماني إطْلاقاً أَنْ يَسْتَطِيعَ جَيْشٌ ٱجتِيازَ ٱلأَلْبِ قَبْلَ حُلُولِ ٱلصَّيْفِ ، هٰذَا إذا ٱسْتَطَاعَ . وَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّ هَنِيبَعْلَ أَصْبَحَ في ٱلجِهَةِ ٱلجَنوبِيَّةِ مِن ٱلجِبالِ وَأَنَّهُ يُجَنِّدُ رِجالَ ٱلقَبائِلِ ٱلغالِيَّةِ ، أَرْسَلُوا سِيبيو وَفَيالِقَهُ وَأَمَرُوهُم بِأَن يَحُثُّوا الخُطَى لِٱعْتِراضِ سَبيلِهِ .

وَقَدْ فُوجِئَ هَنِيبَعْلُ أيضاً بِسُرعَةِ ٱلرُّومانِ . فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ ٱلجَيْشَ ٱلرُّومانِيَّ أَصْبَحَ في بِياسِينْزا ، أَعَدَّ مَكْمَناً عِنْدَ نَهْرِ تْرِبْيا . وَقَدْ فُوجِئَ ٱلرُّومانُ بِٱلهُجُومِ ٱلمُبَاغِتِ فَتَمَزَّقَتْ صُفُوفُهم وَفَرُّوا . وَنَجا ٱلقَليلونَ مِنْ مُلاحَقَةِ ٱلنُّوميديّين .

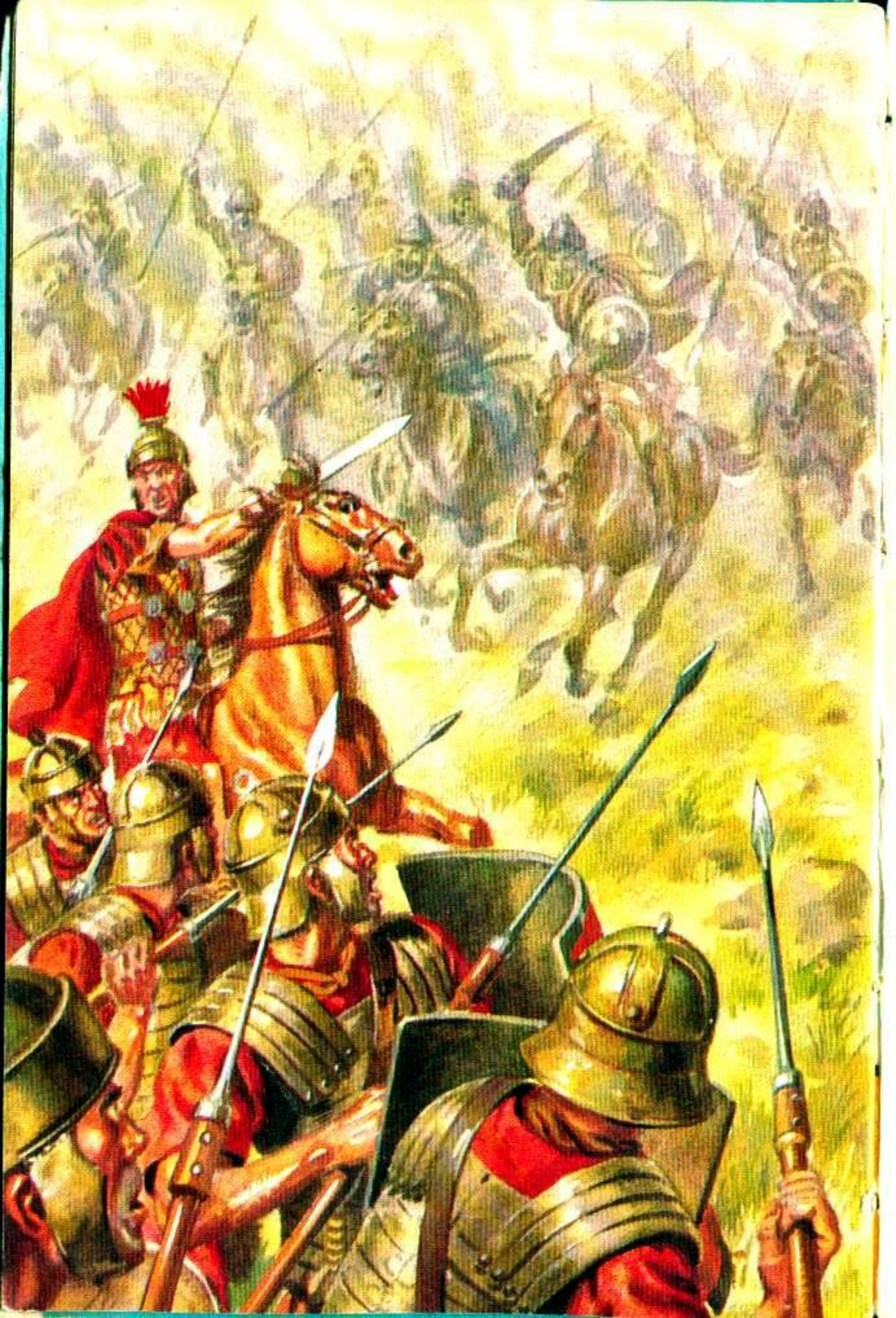

خَبَرُ ٱلقَضَاءِ شِبْهِ ٱلكَامِلِ عَلَى ٱلجَيْشِ ٱلرُّومانيِّ ، حَمَلَ ٱلغَالِيِّين عَلى ٱتِّخَاذِ قَرارٍ . فَٱنْدَفَعَ ٱلأُلوفُ مِنَ ٱلمُتَرَدِّدينَ لِلٱنْضِمامِ إلى ٱلجَانِبِ ٱلظَّافِرِ ، وَتَمَكَّنَ هَنِيبَعْلُ مِنَ ٱلزَّحْفِ جَنوباً مُجْتَازاً جِبَالَ ٱلأَبينيه وَنهرَ آرْنو. فَأَعَدَّ ٱلرُّومانُ عَلَى عَجَلٍ جَيْشاً آخَرَ وَبِإِمْرَةِ ٱلقُنْصُلِ فْلامِينْيُوس آحْتَلَّ أَرِيزُّو لاعْتِرَاضِ مَسِيرَةِ هَنِيبَعْل نَحْوَ رُوما .

تَابَعَ هَنِيبَعْلُ زَحْفَهُ باتِّجَاهِ ٱلجَنوبِ ٱلشَّرْقِيِّ مُجْتَازاً أريزّو قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ فْلامِينْيُوس مِنْ إرغامِهِ عَلَى ٱلقِتالِ ، الأَمْرُ ٱلَّذِي أَفْسَد مُخَطَّطاتِ الرُّومانِ. أَمَّا فْلامِينْيُوس ، إدراكاً مِنْهُ لما كانَ مُقَدَّراً لَهُ أَنْ يواجهَهُ من لومٍ عنيفٍ ومن آحتِقَارِ ٱلجَيْشِ لَهُ ، فَقَدْ سَارَعَ الى تَعَقُّبِ ٱلقَرْطاجِيِّين ٱلَّذينَ أَصْبَحوا عَلى ٱلشَّاطِئِ ٱلشَّمالِيِّ لِبُحَيْرَةِ تْراسِيمِيْن .

لَا بُدَّ أَنَّ ٱلجَانِبَ الشَّمالِيَّ مِنَ البُحَيْرَةِ كانَ أَقْرَبَ إلى ٱلتِّلالِ مِمَّا هُو ٱلْيَوْمَ . فَكُلُّ ٱلرِّواياتِ تُؤَكِّدُ أَنَّهُ عِنْدَمَا لَحِقَ فْلامِينْيُوس بِجَحْفَلِ هَنِيبَعْلَ ٱلطَّوِيلِ ، كَان الضَّبابُ يَحْجُبُ ٱلمُنْحَدَرَاتِ ٱلحَرجِيَّة عَلَى يَسَارِهِ . أَمَّا ٱلْيَوْمَ فَإِنَّهَا تَبعُدُ حَوَالَى كيلومترٍ وَنصفِ الكيلومترِ. وَيَبْدُو أَنَّ خطَرَ ٱلوُقُوعِ في مَكمَنٍ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ ٱلقَائِدِ ٱلرُّومَانيّ ، وكَانَ فِي ٱعْتِقَادِهِ أنّ ٱلقَرطَاجِيِّينَ مَا زَالُوا أَمَامَهُ .

لَقَدْ كَانَ مُخْطِئاً ، فَفَجْأَةً ٱنْطَلَقَتْ مِنْ عَلَى شِمَالِهِ صَيْحَاتٌ مُرْعِبَةٌ وَقَعْقَعَةُ ٱلسُّيُوفِ عَلَى ٱلدُّرُوعِ ٱلمَعْدِنِيَّةِ وَقَدْ قَطَعَ هُجُومُ ٱلنّوميديّين كُلَّ ٱحْتِمالٍ لِلتَّراجُعِ ، كَما أَنَّ وُجُودَ ٱلبُحَيْرَةِ عَلى ٱلجَناحِ ٱلأَيْمَنِ مَنَعَ تَشْكِيلَ ٱلفَيْلَقِ ٱلرُّومانيِّ . وَمَرَّةً أُخْرَى خَدَعَ هَنِيبَعْلُ ٱلْجَيْشَ ٱلرُّومانيَّ ، وربما كان فْلامينْيُوس مَحْظُوظاً لأَنَّهُ لاقَى في تِلْكَ ٱلمَعْرَكَةِ مَصْرَعَهُ .

كَادَ ٱلخَوْفُ يُصيبُ ٱلرُّومانَ بالشَّلَلِ فَقَدْ تَضاءَلَ جَيْشُهُم إلى عَدَدٍ قَليلٍ مِنَ ٱلهارِبينَ . وَقُتِلَ قائِدُهُم . وَٱلطَّريقُ إلى رُوما باتَتْ مَفْتوحَةً ! وَٱلَّذينَ نَجَوْا مِنْ مُلاحَقَةِ النُّوميديِّينَ وَتَمَكَّنُوا مِنَ ٱلعَوْدَةِ إلى رُوما ، أَشاعُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ قِصَصاً كَئيبَةً . إنَّ تَصَوُّرَ وُقُوعِ حَضارَتِهِمْ كُلِّها تَحْتَ رَحْمَةِ مُتَوَحِّشينَ ، وَسَوْقِ نِسائِهِم وَأَطْفالِهِم إلى ٱلعُبُودِيَّةِ ، أَشاعَ ٱلرُّعْبَ بَيْنَ ٱلمُواطِنينَ . فَقَدْ كانُوا يَعْتَقِدُونَ دائِماً أَنَّ فَيالِقَ رُوما ٱلعَسْكَرِيَّةَ لا تُقْهَرُ ، وَهِيَ دِرْعٌ يَشْعُرُونَ وَرَاءَهَا بِالأَمانِ . غَيْرَ أَنَّ هذِهِ ٱلدِّرْعَ لَمْ تَعُدْ مَوْجُودَةً .

وَٱزْدَحَمَتِ ٱلطُّرُقُ المؤدِّيَةُ إلى ٱلجَنُوبِ بِجُموعِ ٱلخائِفينَ وَٱلمُشَرَّدينَ وَٱلقانِطينَ ، يَهْرُبونَ مِنْ حاضِرٍ خَطِرٍ إلى مُسْتَقْبَلٍ مَجْهُولٍ . فَإِنْ لَمْ يُعْثَرْ عَلَى زَعيمٍ قادِرٍ عَلَى تَهْدِئَةِ ٱلشَّعْبِ وَتَشْجيعِهِ ، كانَتْ نِهايَةُ رُوما مَحْتومَةً .

وَفي هٰذِهِ ٱلمَرْحَلَةِ ، كَمَا يَحْدُثُ غالِباً في ٱلتَّاريخِ ، أَنْجَبَتِ السَّاعَةُ ٱلرَّجُلَ المَطْلُوبَ .

وكانَ فابْيوس ٱلرَّجُلَ ٱلَّذي عُيِّنَ في تِلْكَ الحالَةِ ٱلطَّارِئَةِ . وَقَد ٱشْتُهِرَ بِكَوْنِهِ الجِنرالَ ٱلَّذي أَنْقَذَ أَخيراً الجُمْهُورِيَّةَ الرُّومانِيَّةَ مِنْ هَنيبَعْلَ ٱلَّذي خَسِرَ ٱلمَعْرَكَةَ ٱلوَحيدَةَ ٱلَّتي تَقابَلا فيها . وَمِن ٱسْمِ فابيوس ٱشْتُقَّتْ في الإنكليزِيَّةِ صِفَةٌ تَعْني ٱلشَّخْص ٱلَّذي يَظْفَرُ بِفَضلِ التَّرَيُّثِ . وَقَدْ أَخْطَأَ هَنيبَعْلُ بِتَخَلُّفِهِ عَنِ الزَّحْفِ مُباشَرَةً عَلَى رُوما يَوْمَ كانَت الطَّريقُ مَفْتوحَةً أَمامَهُ ، إذ تَحَوَّلَ شَرْقاً عَلَى كُرْهٍ مِنْ قائِدِ فُرْسانِهِ ٱلَّذي قالَ لَهُ مُعاتِباً : « أَنْتَ تَعْرِفُ كَيْفَ تَكْسِبُ ٱلمَعارِكَ . وَلٰكِنَّكَ لا تَعْرِفُ كَيْفَ تُفيدُ مِنَ ٱنْتِصاراتِكَ » . لَمْ يَكُن ٱلقائِدُ عَلَى صَوابٍ . فَجَيْشُ هَنيبَعْلَ لَمْ يَكُنْ مُجَهَّزاً لِمحاصَرَةِ مَدينَةٍ .

بَعْدَ ثَلاثِ سَنَواتٍ مِنْ كارِثَةِ تْراسيمين ، تَمَكَّنَ الرُّومانُ بِفَضْلِ فابْيُوس ، مِنْ حَشْدِ جَيْشٍ قِوامُهُ ٨٠.٠٠٠ رَجُلٍ وَتَدْريبِهِ . وكانَت الفَصائِلُ الَّتي يُرْسِلُها هَنيبَعْلُ لِجَمْعِ العَلَفِ تَتَعَرَّضُ لِلْهُجُومِ بِاسْتِمْرارٍ . وَبِما أَنَّ الرُّومانَ تَمَكَّنُوا حِينَذاكَ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى البَحْرِ ، لَمْ يَعُدْ بِاسْتِطاعَةِ الأَمْدادِ الوُصُولُ إلى هَنيبَعْلَ مِنْ قَرْطاجَةَ . أَضِفْ إلى هٰذا أَنَّ القَبائِلَ في جَنُوبِ إيطالْيا وَالَّتي كانَ هَنيبَعْلُ يَأْمُلُ في تَجْنيدِها ، رَفَضَتِ الانْقِلابَ عَلَى رُوما . لَقَدْ أُصيبَتْ بِلادُهُمْ بِالبَوارِ . فَإِذا كانَ بِوُسْعِ فابْيُوس الانْتِظارُ ، فَهُم مِثْلُهُ مُنْتَظِرونَ .

في سَنَةِ ٢١٦ ق . م . أَقْدَمَ هَنيبَعْلُ عَلى خُطْوَةٍ مُفاجِئَةٍ حاسِمَةٍ . فَقَدْ تَعِبَ مِنْ مُحاوَلَةِ حَمْلِ فابْيُوس عَلَى القِتالِ . وكانَتْ مُؤَنُهُ قَدْ نَضَبَتْ تَقْرِيباً ، فَاسْتَوْلَى عَلَى الحِصْنِ الرُّوماني وَالمُسْتَوْدَعِ الغَنِيِّ في كانِيه . وَهٰذِهِ خُطْوَةٌ لا يُمْكِنُ إِغْفالُها . فَكانَ لا بُدَّ مِنْ تَدْمِيرِ هَنيبَعْلَ وَجَيْشِهِ .

وَلَوْ كانَ في إِمْرَةِ فابْيُوس الفَيالِقُ الأَرْبَعَةُ الَّتي تُشَكِّلُ الجَيْشَ الرُّوماني ، لَمَا وَقَعَتْ كارِثَةُ كانِيه . غَيْرَ أَنَّ فابيوس اضطُرَّ إلى العَوْدَةِ إلى رُوما ، وَبَقِيَ وَراءَهُ قائِدانِ رُومانِيّان اخْتَلَفا عَلَى طَرِيقَةِ خَوْضِ المَعْرَكَةِ .

فَانْتَظَرَ هَنيبَعْلُ مَعَ مُشاتِهِ بَيْنَ مَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ الفُرْسانِ . وَقَدْ هاجَمَ الرُّومانُ الوَسَطَ ، وَبِناءً عَلَى أَوامِرِ هَنيبَعْلَ تَراجَعَ المُشاةُ . وَلَمْ يُدْرِكِ الرُّومانُ أَنَّ ذٰلِكَ كانَ فَخّاً آخَرَ مِنْ فِخاخِ هَنيبَعْلَ العَسْكَرِيَّةِ . فَسَرْعانَ ما تَجَمَّعُوا مَعاً وَتَوَغَّلُوا أَبْعَدَ فَأَبْعَدَ بَيْنَ الفُرْسانِ . وَعِنْدَ إِعْطاءِ الإِشارَةِ المُتَّفَقِ عَلَيْها انْدَفَعَ الفُرْسانُ النّوميديّونَ . فَارْتَصَّتْ صُفُوفُ الرُّومانِ رَصّاً شَدِيداً حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهُم مَجالٌ لِاسْتِعْمالِ أَسْلِحَتِهِم . فلم يَنْجُ مِنْهُم سِوى القَلِيلِ .

كَانَتْ كانيه كارِثَةً . وَبَاتَ مَصيرُ رُوما مَرَّةً أُخْرَى في يَدِ هَنِيبَعْلَ . وَلَكِنْ كَمَا حَدَثَ غَيْرَ مَرَّةٍ في تَارِيخِ ٱلعَالَمِ . أَفْسَدَ الٱنْتِصَارَاتِ في مَيْدانِ القِتَالِ . ٱلسَّاسَةُ ٱلحَاقِدُونَ في ٱلوَطَنِ . وَلَمْ يَصِلْ إلى هَنِيبَعْلَ مِنْ قَرْطَاجَةَ سِوَى عَدَدٍ قَليلٍ مِنَ الفِيَلَةِ وَبَعْضِ التَّعزيزاتِ ٱلنّوميديَّةِ . وَلَكِنَّهُ حَافَظَ لِبضعِ سَنَواتٍ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى بَقاءِ جَيْشِهِ يَتَنَقَّلُ في أَنْحَاءِ شِبْهِ ٱلجَزِيرةِ الإيطالِيَّةِ يَكْسِبُ مَعَارِكَ صَغيرةً . وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ إطْلاقاً يُشكِّلُ تَهديداً لِرُوما .

وَٱسْتَرَدَّتْ رُوما أَنْفَاسَها إلى حَدٍّ يُمَكِّنُهَا مِنْ إرْسَالِ فَيْلَقٍ إلى إسْبانيا وَإفريقيا . أَمَّا مُرتَزِقَةُ هَنِيبَعْلَ فَقَدْ تَعِبُوا مِنَ ٱلحَرْبِ . وَكَانُوا يَهْجُرُونَهُ بِأَعْدادٍ مُتَزايِدَةٍ . وَلَمْ تَعُدْ تَأْتِيهِ تَعْزِيزاتٌ . وَلَمْ يَعُدْ في مَقْدُورِ الأَرْيافِ ٱلَّتي خَرَّبَها جنودُه أَنْ تُمِدَّهُ بِغِذاءٍ يَكْفي رِجَالَهُ أَوْ عَلَفٍ لِأَفْيالِهِ . لَقَد كانَ لَهُ ولِرِجالِهِ لِفَتْرَةٍ مُسْتَقَرٌّ هنيءٌ في مُقَاطَعَةِ كابوا . إلَّا أَنَّ ٱلرُّومانَ مَا لَبِثُوا أَنِ ٱسْتَرَدُّوا تلك المقاطعة .

وَهٰكَذا ٱزدَادَتْ خَيْبَةُ أَمَلِ هَنِيبَعْلَ . وَفي إحدَى ٱلمَرَّاتِ رَكِبَ حِصَانَهُ وَٱقْتَرَبَ مِنْ أَسْوارِ رُومَا وَرَمَى بِرُمْحٍ إلى دَاخِلِ المدينةِ كَعلامَةِ تَحَدٍّ . أَصْبَحَ هَنِيبَعْلُ الآنَ في مَوْقِعِ دِفاعٍ . وَكَانَ دِفاعاً شَديداً وَعُدْوانِيّاً .

في هذِهِ الأَثْنَاءِ كانَ هَسْدْرُوبَال ، أَخُو هَنِيبَعْلَ مُحْتَفِظاً بِإسبانيا . وَنَجَاحُهُ هُنَاكَ يَعْني أَنَّهُ كَانَ حُرّاً لِلزَّحْفِ وَمُسَاعَدَةِ ٱلقَرْطَاجِيِّينَ ٱلمنهوكين . وَبَعْدَ أَنِ ٱجْتَازَ هَسْدْرُوبال الأَلبَ مُلاقِياً مُقاوَمَةً بَسيطَةً بَعْدَ تِسْعِ سَنَواتٍ مِنْ مُرورِ أَخِيهِ ، هُزِمَ وَقُتِلَ في شمالِ إيطاليا . وَأَلْقَتْ دَوْرِيَّةٌ رومانيَّةٌ بِرَأْسِهِ بِٱحتِقَارٍ في مُعَسْكَرِ هَنِيبَعْل .

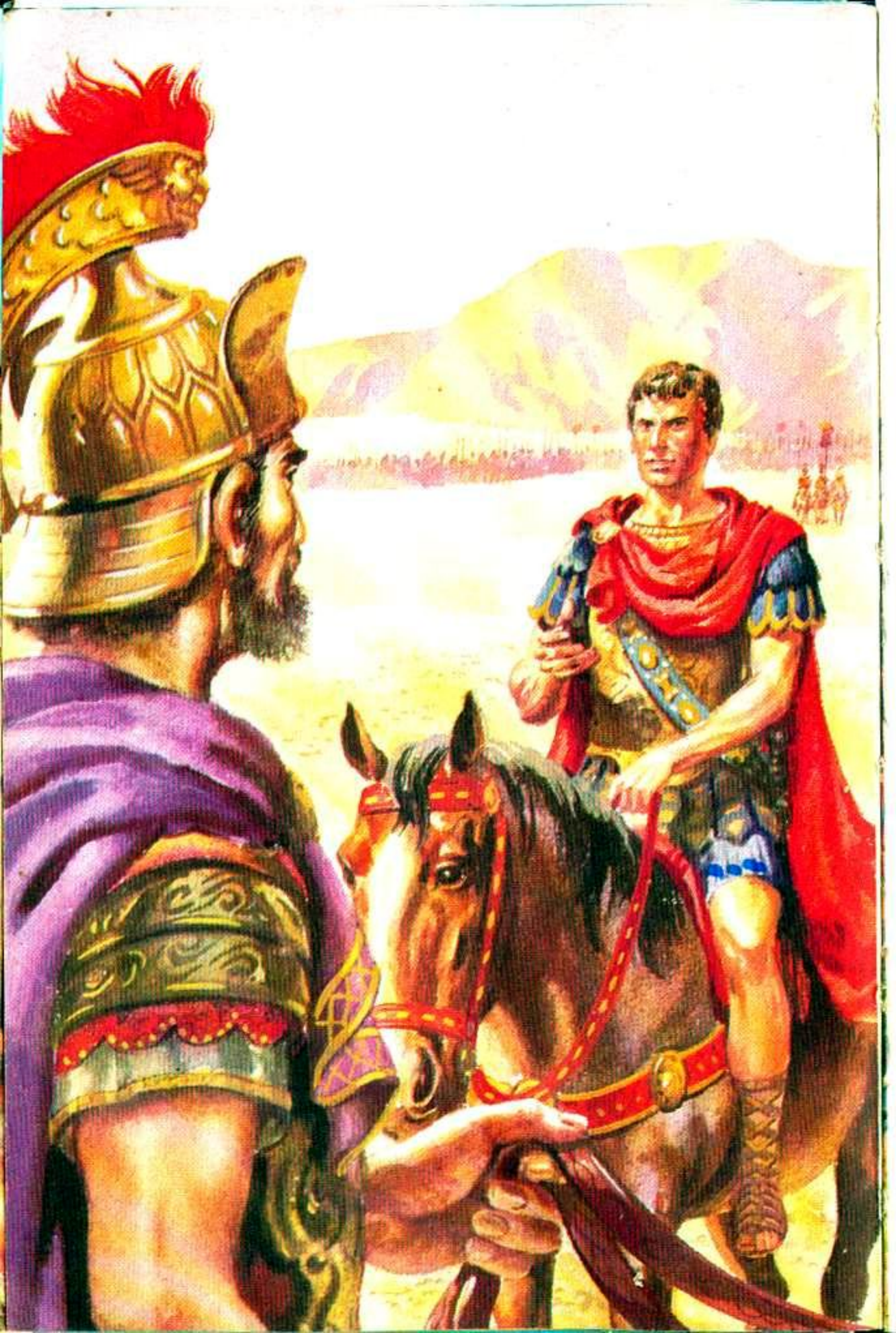

لم يَبْقَ لِهَنِيبَعْلَ كَبيرُ أملٍ في دَحْرِ رُوما . فَقَدْ نَجَحَ سيبيو ٱلأَصْغَرُ مِنْهُ سِنّاً في كَسْبِ معاركِه في إسبانيا ، كَمَا انَّهُ عَبَرَ إلى إفريقيا . فباتَتْ قَرْطَاجةُ في خَطَرٍ ، بَلْ إنَّهَا وَافقَتْ عَلَى التَّفَاوُضِ على الصُّلْحِ عِنْدَمَا عادَ هَنِيبَعْل في عَامِ ٢٠٣ ق . م . غيرَ أنَّ وُجُود ٱلقَائِدِ الَّذي طَالَمَا ٱنْتَصَرَ عَلى فَيالِقِ رُومَا بعث الأَمَل في قلوبِ ٱلقَرْطَاجِيِّينَ الَّذينَ اسْتَجْمَعُوا شَجَاعَتَهُم مُجَدَّداً وَٱسْتَعَدُّوا لِلنِّزالِ .

عِنْدَئِذٍ كَانَ عَلَى هَنِيبَعْلَ أَنْ يُواجِهَ غَضْبَةَ ٱلفُرْسَانِ الَّذينَ طَالَمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى قُدُراتِهِم ٱلقِتَالِيَّةِ ٱلوَحْشِيَّةِ في ٱنْتِصَارَاتِهِ . فَقَدِ ٱنْضَمَّ ٱلمَلِكُ النُّوميديُّ مَاسِينِيسَا إلى سيبيو بِأَرْبَعَةِ آلافٍ مِنَ النُّوميديّين المُرْعِبينَ الَّذينَ رَأَوا ٱلآنَ فُرْصَةً لِنَهبِ مَدِينَةِ قَرْطَاجَةَ ٱلغَنِيَّةِ غِنًى فَاحِشاً .

أَدْرَكَ هَنِيبَعْلُ ٱلخطَرَ . فَتَقَدَّمَ إلى مَوْقِعٍ ٱسْمُهُ زاما وَأَوْفَدَ رُسُلاً إلى سيبيو يَعْرِضُ عَلَيْهِ ٱللِّقاءَ . فَٱلتَقَيَا ، وقالَ هَنيبَعْل : إنَّ السَّلامَ هُوَ لِخَيْرِ ٱلطَّرَفَيْنِ ، فَرَفَضَ سيبيو ٱلسَّلامَ ، وَخَيَّرَ هنيبَعْلَ بَيْنَ ٱلاسْتِسْلامِ أو ٱلقِتالِ .

بَدَأَتْ مَعركَةُ زَامَا بِهَجْمَةٍ شَرِسَةٍ مِنْ ثَمانينَ فِيلاً أَوْ يَزيدُ ، دفَعَهَا هَنِيبَعْل آملاً أَنْ يُفَرِّقَ بها ٱلفَيَالِقَ ٱلرُّومانِيَّةَ . إلَّا أَنَّ ٱلخُطَّةَ أَخْفَقَتْ . فَقَدْ أَفْزَعَ ٱلرُّومانُ الفيلَةَ بِقَرْعِ الصُّنوجِ قَرْعاً صَاخِباً وبإطْلاقِ نَفيرِ الأَبْواقِ إطْلاقاً ناشِزاً عالياً . فإذا بِالْفِيَلَةِ تَعُودُ مُجْفِلَةً إلى خُطوطِ ٱلقَرطَاجِيِّينَ . وَوَاجَهَ جُنُودُ هَنيبَعْلَ ٱلمُحَنَّكُونَ مُقَاوَمَةً قَاسِيَةً مِنَ ٱلفَيَالِقِ ٱلمُنْتَقِمَةِ ، وكَانَ مصيرُ ٱلمَعْرَكَةِ لِفَتْرَةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ مَوْضِعَ شَكٍّ . وَفي ٱللَّحْظَةِ ٱلحَرِجَةِ هَجَمَ نُوميديّو الملكِ ماسينيسّا مِنْ جِهَةِ ٱلجَناحِ . وكَانَ ذٰلِكَ تَكْتِيكاً ٱتَّبَعَهُ هَنِيبَعْلُ في ٱنْتِصاراتِهِ ٱلعَدِيدَةِ . ولٰكِنْ جَاءَ ضِدَّهُ هذِهِ ٱلمَرَّةَ .

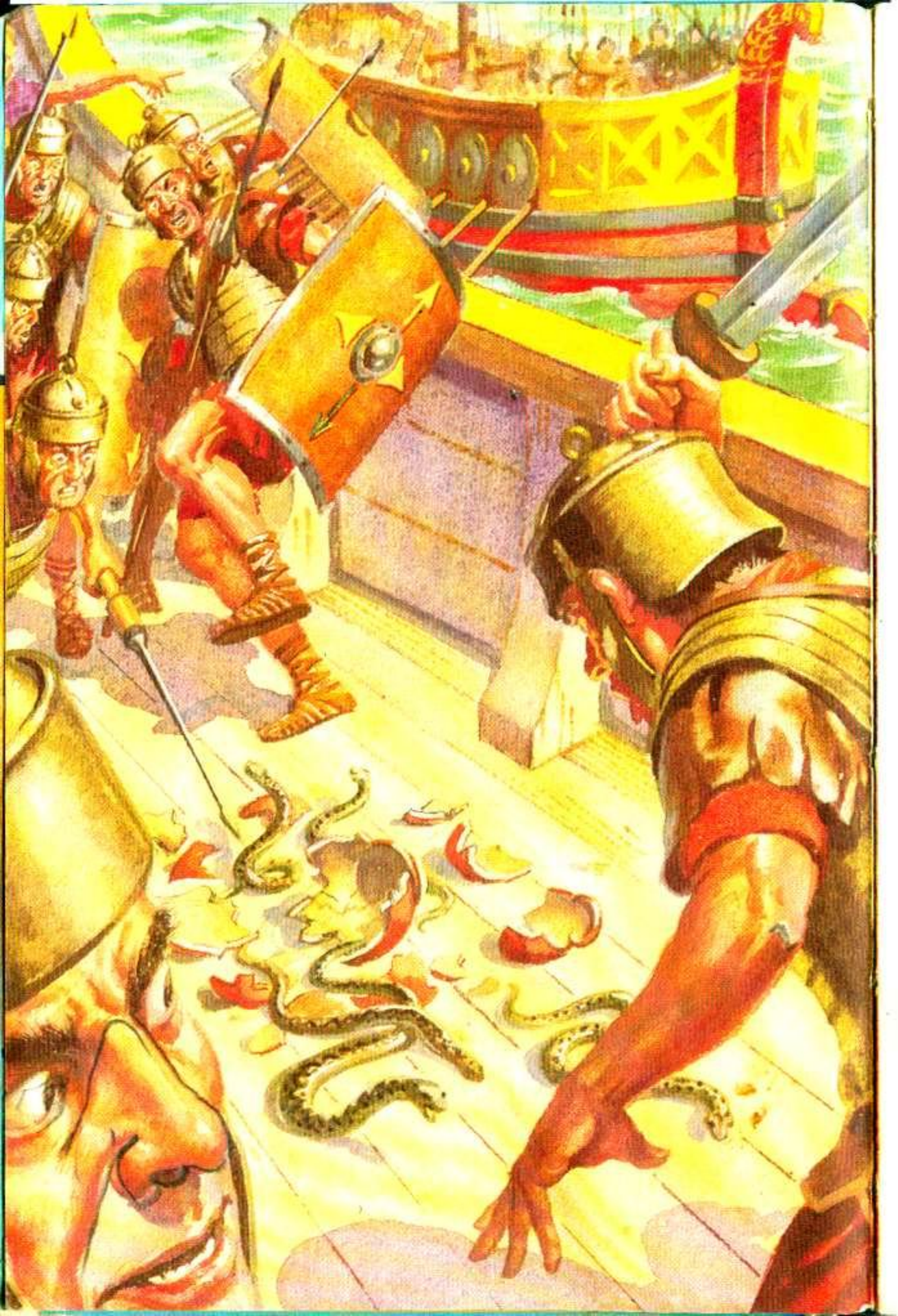

شُرُوطُ الصُلح كانَتْ مُذِلَّةً لقرْطاجَةَ فَلَمْ يُسمَحْ لِهذِهِ ٱلمَدِينَةِ – الدَّولةِ حَتَّى بِالْبَقاءِ والمتاجرةِ . إلا لِأَنَّ أَحَدَ شُروطِ الصُّلْحِ كَانَ دَفْعَ عَشرَةِ آلافِ مِثْقَالٍ مِنَ الفِضَّةِ عَلَى خَمْسينَ قِسْطاً . فَلَوْ نَهَبَ ٱلرُّومانُ قَرْطَاجَة وَأَحْرَقُوهَا لَمَا كَانَ بِوُسْعِهَا أَنْ تَدْفَعَ ٱلمَالَ ٱلذي كانت روما تَحْتَاجُهُ .

وَرُبَّمَا قِيلَ إن هَنِيبَعْلَ خَرَّبَ قَرْطَاجة إلا أَنَّ ٱلمُواطِنينَ أَقَرُّوا بِأَنَّهُ عَبْقَرِيٌّ . فَلِسَبْعِ سَنَواتٍ سَاسَ شُؤونَ الرَّعِيَّةِ عَلَى نَحْوٍ جَيِّدٍ شَعَرَ الرُّومانُ إزاءَهُ بِٱلخَوْفِ مِنَ ٱلاَزْدِهَارِ ٱلمُطَّرِدِ لِمُنَافسَتِهِم ٱلوَحيدَةِ ٱلخَطِرَةِ . وَٱعْتَقَدُوا عَنْ حَقٍّ أَنَّهُ لَوْلا هَنِيبَعْلُ لَمَا اسْتَرَدَّتْ قَرْطَاجةُ أَنْفَاسَها . فَلَفَّقُوا تُهْمَةً بِأَنَّ جِزْيَةَ ٱلحَرْبِ لَمْ تُدْفَعْ كامِلَةً . وَطَالَبُوا بِاعْتِقالِهِ وَتَسْلِيمِهِ . وكَانَ هَنِيبَعْلُ يَعْلَمُ أَنَّ مَجْلِسَ ٱلشُّيُوخِ ٱلقَرْطَاجِيَّ مُؤَلَّفٌ مِنْ رِجَالٍ ضَيِّقِي ٱلأُفُقِ . يَحْسُدونَ رَجُلاً عَبْقَرِيّاً .

تَرَكَ قَرْطَاجَةَ وَأَبْحَرَ إلى سُوريا حَيْثُ كانَ ٱلمَلِكُ أَنْطيُوخُس في حَرْبٍ مَعَ رُوما . وَفي بَادِئِ ٱلأَمْرِ سُرَّ أَنْطيُوخُس كَثيراً بِأَنْ يَظْفَرَ بِمَشُورَةِ هَنِيبَعْلَ ٱلعَظِيمِ . غَيْرَ أَنَّ ٱلحَظَّ خانَهُ . فَقَدْ دُمِّرَ أُسْطُولُهُ . وهُزِمَ ٱلجَيْشُ ٱلَّذي لَمْ يَثِقْ بِهِ هَنِيبَعْلُ كَثيراً . وَخَامَرَ هَنِيبَعْلَ شَكٌّ في أَنَّ ٱلرُّومانَ سَيُطالِبُونَ مُجَدَّداً بِٱعْتِقَالِهِ مُقَابِلَ مُعَاهَدَةِ صُلْحٍ وَأَنَّ أَنْطيُوخُس سَيُوافِقُ .

فَغَادَرَ هَنِيبَعْلُ ٱلبِلادَ ٱلجَاحِدَةَ ٱلثَّانِيَةَ وَفَرَّ إلى بِيثِينْيَا ، وَهِيَ دَوْلَةٌ أُخْرَى كانت في حَرْبٍ مَعَ رُوما . وَبِخدْعَةٍ مِنْ خِدَعِهِ هَزَمَ أُسْطُولاً رُومانِيّاً بِأَنْ أَلْقَى عَلَى ظَهْرِ سُفُنِ ٱلرُّومانِ جِرَاراً مَلأَى بِٱلأَفاعِي ٱلسَّامَّةِ . وكَانَ هَنِيبَعْلُ آنذاكَ قَدْ جَاوَزَ ٱلسِّتِّين . وَأَدْرَكَ أَنَّ رُوما لَنْ تَكُفَّ عَنِ ٱلمُطَالَبَةِ بِمَوْتِهِ . فَتَنَاوَلَ ٱلسُّمَّ وَخَدَعَهُمْ لِلْمَرَّةِ ٱلأَخيرَةِ .

السِّلْسِلَةُ التَّاريخِيَّة

١ – جان دارْك
٢ – ماركو بولو
٣ – الكابْتِن سْكوت
٤ – نابوليون
٥ – كليوباترا ومِصْرُ القَدِيمَةُ
٦ – تْشارْلز ديكِنْز
٧ – كْرِسْتوفر كولومْبس
٨ – الإسْكَنْدر الأكْبَر
٩ – الحَضاراتُ الكَبْرَى : مِصْر
١٠ – الحَضاراتُ الكُبْرى : اليونان
١١ – فْلورَنْس نَيْتِنْغيل
١٢ – هَنيبَعل
١٣ – الحَضاراتُ الكُبْرَى : البابْكِنْجز
١٤ – الحَضاراتُ الكُبْرَى : روما
١٥ – الحَضاراتُ الكُبْرى : كريت

Series 561/Arabic

يُوجَدُ الآنَ أكثرُ مِن ١٥٠ كتاباً في سِلسِلة ليديبرد باللغةِ العربيّةِ تشْمَلُ عَدداً من المواضِيعِ يُناسِبُ مختلفَ الأعْمارِ .
أُطلبِ البيانَ الخاصَّ بها مِن :

مَكتبَة لبْنَان ، سَاحَة رِيَاض الصّلح ، بَيروت